مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م ١٤، ص ص: ٣٥-٨٩ (٢٠٠٦م/ ١٤٢٧هـ)

الفتح والتوسع السلجوقي في آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي

عمر يحيى محمد

أستاذ مساعد - رئيس قسم التاريخ - كليه الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبد العزيز - جـــدة - المملكة العربية السعودية

المستخلص. كان السلاجقة إحدى القوى المحاربة التي برزت على مسرح الأحداث في الدولة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وذلك في أعقاب الضعف والانهيار الذي ساد الدولة العباسية تحت سيطرة بني بويه.

فقد استطاع السلاجقة بعد هذا البروز الاستحواذ على السلطة والسيطرة في الدولة العباسية مما مكنهم أن يقدموا دفقا جديدا للحضارة الإسلامية وللمد الإسلامي ولحركة الفتوح شمالا وشرقا.

وقد تركزت حركة المد الإسلامي في فترة السلاجقة على الشرق؛ حيث استطاعوا أن يصلوا به إلى أواسط آسيا، وإلى الشمال حيث استحوذوا على منطقة آسيا الصغرى والتي مثلت قلب الإمبراطورية البيزنطية ومستودعها الأكبر للرجال والأقوات.

وقد خاض السلاجقة خلال حروبهم في آسيا الصغرى نضالا ضد الإمبراطورية البيزنطية؛ حيث استطاعوا استخلاص هذه الأراضي من تلك الإمبراطورية.

وتمثل حركة التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى وحروبها مع

الدولة البيزنطية واحدة من الحلقات الهامة في التاريخ الإسلامي والتاريخ البيزنطي، وتاريخ العصور الوسطى بصفة عامة.

لقد استطاع السلاجقة بتوسعهم في منطقة آسيا الصغرى أن يفتحوا صفحة جديدة من صفحات الفتوح الإسلامية وأن يضيفوا ملمحا جديدا من ملامح الصراع بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، وفصلا جديداً من فصول هذا الصراع الذي تواصلت حلقاته طوال سبعة قرون لينتهي بتقويض المسلمين على يد محمد الفاتح العثماني سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م لهذه الإمبراطورية وبدخول عاصمتها القسطنطينية فاتحين.

إن هذا البحث يركز على الفتح السلجوقي لآسيا الصغرى وما أدى إليه وما تمخض عنه من أحداث.

أوضاع آسيا الصغرى تحت الحكم البيزنطي

يعرف شبه الجزيرة الواقع بأقصى غرب آسيا بـ (آسيا الصغرى) كما يعرف أيضًا بـ « الأناضول » ويحد آسيا الصغرى شمالا البحر الأسود وجنوبًا البحر المتوسط وغربًا بحر إيجة، ويصل البحر الأسود ببحر إيجة « بحر مرمرة » و مضيقا البوسفور والدردنيل، وبقرب الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى تمتد جبال طوروس بينما يتألف باقي شبه الجزيرة من هضبة تعلوها الجبال وتكثر بها البحيرات(١).

وكانت آسيا الصغرى ملتقى الحضارتين الشرقية والغربية في العصور القديمة، إذ يربطها نهر دجلة والفرات بالعراق، وتربطها سواحلها باليونان.

وبعد تدهور الحيثيين ظهرت المستعمرات اليونانية على السواحل وبذلك اتصل اليونانيون بليديا وفريجيا وطرواده ، وهي من أهم مناطق آسيا الصغرى(٢).

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة، إشراف/ محمد شفيق غربال، القاهرة، دار إحياء التراث العربي ١٩٦٥، ج١، ص١٦٣.

(٢) **ستيفن رانسيمان**، *الحضارة البيزنطية*، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م، ص٧.

وشكلت منطقة آسيا الصغرى منذ القدم ومنذ أن كانت إحدى مناطق نفوذ الإمبراطورية الرومانية القديمة هدفًا للغزوات الفارسية ، وأدى غزوهم لها إلى قيام الصراع مع روما والذي استمر فترة طويلة امتدت من بدايات حكم الإسكندر الأكبر ولم تنته إلا في عهد الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠-٦٤١م)[٣] حين حقق عليهم انتصارًا كبيرًا سنة ٦٢٨م حيث استخلص منهم معظم المناطق التي قاموا بالاستيلاء عليها في فترات سابقة، وكان من ضمنها « آسيا الصغرى » وبلاد الشام ومصر[٤].

كما شكلت بموقعها المتميز كنقطة التقاء بين قارتين أهمية إستراتيجية كبيرة ، على أن أكبر أهمياتها كونها مثلت في فترات مختلفة مستودعًا لاينضب لحشد الجنود والمقاتلة والذين مثلوا العنصر الفعال لجيش الإمبراطورية الرومانية ومن بعدها الجيش البيزنطي. كما مثلت آسيا الصغرى الموقع المناسب حين فكر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) في نقل العاصمة من روما إلى الشرق ، بعد أن أصبحت روما غير ملائمة عسكريًا واقتصاديًا واجتماعيًا لتكون العاصمة الوحيدة للإمبراطورية ، فبعد عدة إصلاحات اتخذها هذا الإمبراطور لإصلاح نظام الحكم قام بنقل العاصمة إلى مدينة نيقوميديا (ازمت الحالية في تركيا) إحدى مدن آسيا الصغرى الهامة المطلة على بحر إيجة بعد أن وجدها أكثر ملاءمة وقربًا من مقر حكم أعدائه الألداء الفرس ، وأكثر وفرة في الرجال[٥].

كما أنها أمدت الإمبراطورية بعدد من الأباطرة الذين كان لهم أثرهم الواضح في أحداث التاريخ البيزنطي ولهم أدوارهم المميزة[٦].

---

(٣) **جوزيف نسيم** ، تاريخ الدولة البيزنطية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٤م ، ص٩٧.

(٤) أرنست **باركر** ، الدولة البيزنطية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٢م ، ص١٢٧.

(٥) ج.م.**هسى** ، العالم البيزنطي ، ترجمة: د.رأفت عبد الحميد ، القاهرة ، دار المعارف . الطبعة الثالثة ، ١٩٨٤م ، ص٩٠.

(٦) من هؤلاء الأباطرة « ليو الثالث الإيسوري » ٧١٧-٧٤٠م / ٩٩-١٢٣هـ ، والذي قاد الحركة الايقونية وهي التي عرفت بحركة محاربة عبادة الصور وهي حركة شغلت جانبا كبيرا من تاريخ الإمبراطورية ومثلت واحدا من مجالات الصراع بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني ومنهم الامبرطور « الكسيوس كومنين » ١٠٨١-١١١٨م / ٤٧٤-٥١٨هـ والذي تعامل مع الحملة الصليبية الأولى وكان له موقفه =

فآسيا الصغرى بكل هذه المعطيات كانت واحدة من أهم مناطق النفوذ البيزنطي وإحدى أهم ولايات الإمبراطورية الشاسعة.

وكانت تحكم حكمًا مباشرًا من قبل القسطنطينية ، وتتولى الحكومة المركزية في العاصمة تعيين ولاتها ، ويقوم الولاة والحكام المحليون بأداء اليمين والضرائب إلى حكومتها ، وكان لهذا الحكم المباشر أثره الثقافي والحضاري والديني.

وعندما تمكن المسلمون في العهد الراشدي والدولة الأموية من الاستحواذ على بلاد الشام ، ومصر وتمكنو من فتحهما ، أصبحت آسيا الصغرى الحصن المتقدم للدولة البيزنطية في صد هجمات المسلمين الذين كانوا يسعون لإسقاط العاصمة البيزنطية ، وأقام البيزنطيون في عدد من مدنها قواعد عسكرية سميت بالثغور أو « الثيمات » لمواجهة المد الإسلامي (٧).

وقد شكلت هذه الثيمات نقاط احتكاك عسكري وحضاري استفادت منه منطقة آسيا الصغرى اقتصاديًا وعمرانيًا. بل إننا لانبالغ حين نقول إن آسيا الصغرى في عهد الإمبراطور هرقل وماتلاه من عهود مثلت قلب الإمبراطورية ؛ لذلك كان لابد من وضعها في حالة دفاع دائم ومتواصل ، وصار من المألوف إنزال ألوية معينة من الجند أي الثيمات Themata بصفة دائمة في أقاليم معينة من آسيا الصغرى، وما عناه ذلك من تركيز الاهتمام بمنطقة آسيا الصغرى من قبل الحكومات المتتالية في بيزنطة ؛ لأن هذه المناطق أو الثغور كانت المسرح الذي تتصارع حوله قوى المسلمين والبيزنطيين ثم يتغلب أحدهما على الآخر (٨).

= المناوئ منها ثم دخل في صراع بعد ذلك مع الصليبيين ، وغيرهما من الأباطرة الذين جاءوا من آسيا الصغرى.

(٧) **عليه الجنزوري**، *الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية* ، الناشر دار التضامن القاهرة ١٩٨٨م، ص٤ ، ومن هذه الثغور ثغر الارميناق في شمال شرق آسيا الصغرى على حدود أرمينيا ، وثغر الاناتوليك، وثغر الابسيق في آسيا الصغرى قرب بحر مرمرة ، وثغر كبيريوت في الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى وغيرها من الثغور . للمزيد عن هذه الثغور والهدف من إنشائها وتطورها أنظر : **د.حسنين محمد ربيع** ، *دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية* ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩٠م ، ص ٧٥.

(٨) **عليه الجنزوري** ، مرجع سابق ، ص ١٨٦.

لقد لعبت منطقة آسيا الصغرى دوراً هاماً في إطار الدولة البيزنطية سواء في النواحي العسكرية أو الاقتصادية أو الحضارية ؛ لذلك حرصت الإمبراطورية البيزنطية على عدم التفريط فيها ، وكذلك حرص المسلمون على الاستحواذ عليها ، لما يشكله ذلك من ضربة قاصمة للدولة المناوئة لهم ، وامتداد جغرافي وسياسي هام ، وحلقة هامة من حلقات الصراع بين القوتين العظميين في تلك الفترة من فترات التاريخ والتي تعارف المؤرخون على تسميتها بالعصور الوسطى.

وفي بدايات القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري كانت آسيا الصغرى ماتزال المورد الرئيسي للرجال والأموال للإمبراطورية البيزنطية بفضل ماتوافر لها من بناء اجتماعي متماسك قائم على أساس نمو سكاني من الفلاحين الأحرار وتقارب ثقافي يتميز بلغة يونانية في الحديث اليومي ، وعقيدة أرثوذكسية كديانة للسكان ، وقد تطورت تلك الملامح الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في أثناء الحروب التي خاضتها الإمبراطورية البيزنطية عند نهاية حكم باسيل الثاني١٠٢٥م / ٤١٦هـ ، لتصبح أكبر مركز قوة في أوروبا والشرق الأدنى(٩) . إلا أنه صاحب ذلك تغيرات أدت إلى انهيارها، وليتضح هذا الانهيار عند أول تصادم مع السلاجقة.

وكان من عوامل الانهيار الذي ألم بآسيا الصغرى امتصاص الملكيات الصغيرة للفلاحين الأحرار والجنود وخضوعهم لتبعية كبار الملاك الارستقراطيين من أصحاب الضياع الكبيرة الذين شغلوا الوظائف المدنية والعسكرة المهمة في الدولة ، وهكذا اختفى الفلاح الحر والفلاح الجندي بعد أن أصبحت تلك الضياع وراثية في العائلات الكبيرة ، بل أصبح هؤلاء الفلاحون البيزنطيون يعملون كأقنان في ضياع السادة الذين حازوا الإقطاعات الخاصة التي منحت لهم من الأباطرة مقابل تقديم المقاتلين وبعض الخدمات الحربية للإمبراطور ، وأدى ذلك إلى زيادة نفوذ النبلاء وتدهور أوضاع الجيش البيزنطي، ونقص القوات المحلية البيزنطية في آسيا الصغرى(١٠) .

(٩) **أحمد عبد الكريم سليمان** ، *المسلمون والبيزنطيون* ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ج١ ، ص ٢١٤.

(١٠) المرجع السابق ، ص ٢١٥.

ورغم الجهود التي بذلها الأباطرة بعد ذلك - وبعد أن أحسوا بأثر ذلك على نظام التجنيد - للتصدي لهذه الظاهرة إلا أن معالجة هذا الأمر كانت متأخرة فقد أصبحت الخدمة العسكرية أمراً غير مرغوب فيه ، وتحول الجنود إلى محامين وقضاة . كما أن بعض الأباطرة البيزنطيين قد تعمدوا في بعض الفترات إهمال العسكرية وبالذات في آسيا الصغرى رغبة في تجنب ثورات هؤلاء العسكر والحد من قوتهم ، كما حدث في فترة قسطنطين التاسع (١٠٤٢-١٠٥٥م/ ٤٣٤-٤٤٧هـ) وقسطنطين العاشر (١٠٦٨-١٠٩٥م/ ٤٦١-٤٨٨هـ).

وتدهور الجيش البيزنطي أدى بالضرورة إلى الاستعانة بجنود مرتزقة من الشعوب الأجنبية مثل الروس ، والترك ، والنورمان ، والبشناق ، والبلغار ، والألمان ، وغيرهم ، ونقلهم إلى المنطقة كان له أثره على تدهور الحياة الثقافية الذي كان عاملا من عوامل تماسك البناء الاجتماعي في آسيا الصغرى[١١] .

أدى كل ذلك إلى أن أصبحت الأوضاع في آسيا الصغرى ينتابها التفكك السياسي وعدم التوازن الاجتماعي والعرقي ، وفي تلك الظروف ظهر الأتراك السلاجقة كقوة خطيرة ، وكانت تلك الظروف خير معين للسلاجقة لتحقيق أهدافهم التوسعية بسهولة في المنطقة.

إن استحواذ المسلمين على أجزاء من آسيا الصغرى في فترات متعددة من تاريخهم كان النواة الأولى لتقويض الإمبراطورية البيزنطية ، والذي استغرق فترة طويلة حتى هيأ الله لهم الفرصة لإسقاط العاصمة البيزنطية على يد الأتراك العثمانيين بقيادة السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ انطلاقا من آسيا الصغرى.

ظهور السلاجقة على مسرح الأحداث في الدولة الإسلامية

يعود أصل السلاجقة إلى الترك الغز الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة التي تمتد من حدود الصين الجنوبية والغربية حتى شواطئ بحر قزوين ، وكثرت هجراتهم إلى

---

(١١) الباز العريني، مرجع سابق ، ص ٢١٥.

شواطئ نهر جيحون ، خصوصًا وقت انهيار الدولة السامانية(١٢) .

وقد أطلق على هذه القبائل اسم السلاجقة بعد أن تولى رئاستها سلجوق ، ويذكر ابن الأثير أن « سلجوق » كان ابن تقاق ،وكان شهمًا ذا رأي وتدبر ، وكان مقدم الأتراك الغز ومرجعهم ، كما كان قائد جيش ملك الترك الذي يسمى بيغووان هذا الملك أراد أن يغزوا بلاد الإسلام فنهاه تقاق عن ذلك وحصلت بينهما مشادة إلا أنه عاد لرأي تقاق ، ولما كبر سلجوق ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك واتخذه قائدًا للجيش ، وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من تقدمه وطاعة الناس له والانقياد له وأغرته بقتله ، ولما سمع سلجوق ذلك سار بجماعته كلهم ومن يطيقه من دار الحرب إلى دار الإسلام(١٣) .

وقد نزح هؤلاء السلاجقة في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي من تركستان إلى ماوراء النهر بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم ، وكانت منازلهم في الشتاء في نور بالقرب من بخارى وفي الصيف في سغد بجوار سمرقند(١٤) .

على أن التطور المهم في حياة السلاجقة في تلك الفترة هو اعتناقهم الإسلام على المذهب السني تحت تأثير العناصر التركية الأخرى من السامانيين والخانيين والغزنويين، ويسر لهم ذلك فرصة التقرب من حكام المسلمين المجاورين لهم والتداخل أحيانًا في المنازعات التي تثور بينهم(١٥) .

حاول السلاجقة مد نفوذهم وسيطرتهم إلى خراسان ، لكنهم اصطدموا بقوة الغزنويين التي حلت محل السامانيين ، واستخدمهم السلطان محمود الغزنوي في غزواته في الهند ، وكان هدفه أيضًا أن يأمن من خطورة تواجدهم على حدوده ؛ لأنهم

---

(١٢) **عصام الفقي** ، *بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي* ، القاهرة ، دار الكتاب (بدون سنة النشر) ، ص ٦٣ .

(١٣) ابن الاثير ، *الكامل في التاريخ* ، بيروت ، طبعة دار الفكر ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، حوادث سنة ٤٣٥هـ ج٨، ص٢٢ ، وتقاق أو دقاق تعني بالتركية القوس الجديد.

(١٤) **أحمد عبد الكريم سليمان** ، *المسلمون والبيزنطيون* ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢١٨ .

(١٥) **عبد النعيم حسنين** ، *دولة السلاجقة* ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥م ، ص ١٨ .

كانوا مصدر شغب فالسلاجقة لم يألفوا حياة المدن ، بل غلبت عليهم سمات البداوة والميل إلى التنقل والترحال حيث توجد المراعي(١٦) .

ولما كثرت هجمات السلاجقة على المدن في خراسان ونهب محاصيلها قبض السلطان « محمود الغزنوي » على زعيمهم إسرائيل وحبسه في الهند ثم طردهم من خراسان فاتجهوا إلى مقربة من أذربيجان سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م(١٧) .

وبوفاة السلطان محمود الغزنوي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م أخذت قوة الغزنويين بعده في الضعف ، مما يسر للسلاجقة التوسع على حساب جيرانهم ، وكان أن هزم زعيمهم في هذه الفترة طغرل بك السلطان مسعود الغزنوي في معركة نسا في عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م ، فاضطر مسعود إلى عقد صلح مع السلاجقة وترك لهم منطقة خراسان(١٨) .

وفتحت معركة « نسا » الطريق أمام السلاجقة لتحقيق مزيد من الانتصارات والتوسع على حساب الغزنويين ، حيث واصلوا انتصاراتهم حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بجيش السلطان مسعود في موقعة داندانقان الشهيرة سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م(١٩) . وهي المعركة التي ثبتت وجودهم في خراسان وجعلت الطريق أمامهم مفتوحًا لفرض سيطرتهم على إيران دون مقاومة جادة.

وواصل طغرل بك انتصاراته حيث استولى على جرجان وطبرستان سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م وعلى خوارزم والري وبلاد الجبل سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م وعلى أصبهان سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م وأذربيجان سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م(٢٠) . واضعًا بذلك أساسًا للدولة السلجوقية ذات السيطرة الواسعة.

---

(١٦) **صدر الدين على الحسيني** ،*كتاب أخبار الدولة السلجوقية* ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٤هـ ، ص ٧.

(١٧) **محمد بن محمد الأصفهاني** ، *تاريخ دولة آل سلجوق* ، *اختصار الفتح البنداري* ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٠هـ ، ص ٥٨١.

(١٨) **أبو الفضل البيهقي** ، *تاريخ البيهقي* ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، بيروت ، دار النهضة العربية، ١٩٨٢م ، ص ٥٨١.

(١٩) **ابن الاثير** ، مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ٣٠.

(٢٠) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ص: ٧٠-٧١.

وتوج السلاجقة انتصاراتهم حين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، تلبية لدعوة الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) لإنقاذه من تسلط البويهيين على الخلافة العباسية حيث كان قائدهم البساسيري الذي يدين بالمذهب الشيعي يخوض مؤامرة ضد الخلافة العباسية ويريد تقويضها وإدخالها تحت لواء الخلافة الفاطمية في القاهرة.

ويستدعينا المقام هنا قبل أن نتابع ظهور السلاجقة على مسرح الأحداث في الدولة الإسلامية أن نقدم لمحة سريعة عن أوضاع الخلافة العباسية وترديها حتى ظهور السلاجقة وتسلمهم زمام الأمور حيث أصبحت لهم الزعامة السياسية والدنيوية واحتفظ الخليفة العباسي بالزعامة الروحية، إذ ظهروا كقوة جديدة في الدولة الإسلامية واستطاعوا تجديد شبابها وحمايتها من الأخطار التي كانت تحيط بها وأهمها الخطر البيزنطي الذي كان يتربص بها في هذه الفترة والخطر الفاطمي الذي كانت ملامح تهديداته معروفة وملموسة.

وفي الواقع كانت الدولة العباسية قد دخلت دوراً من الضعف والفوضى العارمة، وفقد الخلفاء العباسيون السيطرة على مقاليد الأمور منذ فترة الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ)-(٨٤٧-٨٦١م) حيث أخذ نفوذ الأتراك في الازدياد وعمت سيطرتهم مختلف مناصب الدولة، وأمسكوا بزمام الأمور في مختلف نواحيها[٢١].

وبلغ تردي الأمور قمته حين قامت مجموعة جديدة مناهضة لسيطرة الأتراك على الخلافة العباسية، ونعني بهم بني بويه، الذين استطاعوا إنهاء هذه السيطرة والاستئثار بها، ودخلت الخلافة العباسية تحت سيطرتهم الكاملة لأكثر من مائة عام.

ويمكن إجمال موقف بني بويه من هذه الخلافة وأهم ماتركوه من آثار خطيرة عليها بالتالي:

- كان من نتائج استيلاء البويهيين على عاصمة الخلافة واستبدادهم بالسلطة أن ضعف

(٢١) عبد النعيم حسنين، مرجع سابق، ص ١٣.

مركز الخليفة حيث أصبح لعبة في أيديهم ليس له من الأمر سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة وفقد الامتيازات التي ورثها منذ قيام الدولة العباسية وَيعلق المؤرخ المعروف ابن الاثير على هذا الحال بقوله: ازداد أمر الخلافة إدباراً ولم يبق لهم من الأمر شيء ألبته ، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحركة قائمة بعض الشيء فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك بحيث إن الخليفة لم يبق له وزير وإنما كاتب يدير إقطاعاته وإخراجاته لاغير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة ليستوزر لنفسه من يريد[٢٢].

- كان البويهيون شأنهم شأن العُبيديين -الفاطميين- يعتقدون أن العباسيين مغتصبون للخلافة لذلك لم يكن لديهم باعث ديني على طاعتهم ، بل إنهم فكروا عدة مرات في إنهاء الخلافة العباسية وأظهروا طاعتهم للخلافة الفاطمية في مصر[٢٣].

وهناك من يرى أن خوف بني بويه من مناصري الدولة العباسية من سامانيين وغزنويين وحلفائهم هو الذي جعلهم يتأخرون في اتخاذ هذه الخطوة[٢٤].

- استمرأ البويهيون خلع وتعيين الخلفاء وكانوا يغيرونهم ويخلعونهم كما يخلعون خواتمهم من أصابعهم ، فبعد أن عزلوا المستكفى وسملوا عينيه ولوا المطيع ، ثم ما لبثوا أن خلعوا المطيع بعد أن أهانوه واعتدوا على حرمة الخلافة وجذبوه من سريره وهو يستغيث ويقول لاحول ولاقوة إلا بالله ولا يلتفت إليه ثم أرغموه على التنازل ليتولى القادر بالله.

- بل ذهب أمراء بني بويه مذهبًا أكبر حيث أصبحت أسماؤهم تذكر مع أسماء الخليفة في الخطبة ، بل إن عضد الدولة البويهي (٣٣٨-٣٧٢هـ/ ٩٤٩-٩٨٣م) عمد إلى حذف اسم الخليفة الطائع من الخطبة مدة شهرين حين تفاقم الخلاف بينهم[٢٥]. طالب أمراء بني بويه بالألقاب والخلع بل إن بعضهم لم يكتف بلقب واحد وأصبح

---

(٢٢) **ابن الأثير** ، المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٣١٥.

(٢٣) **عبد النعيم حسنين** ، مرجع سابق ، ص ١١.

(٢٤) **رشيد الجميلي**، *دراسات في تاريخ الخلافة العباسية* ، مكتبة المعارف ، الرباط ١٩٨٤م. ص ١٩٥.

(٢٥) **السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين)** ، *تاريخ الخلفاء* ، القاهرة ، ١٩٨٦م ، ص ٢٧٠.

بعضهم يتمتع بلقبين وثلاثة مما يعني مزيداً من النفوذ والسلطان في الوقت الذي تراجعت فيه سلطات الخليفة وكادت تقتصر على المسائل الدينية فقط.

- لم يخف بنو بويه تشيعهم وتحيزهم للمذهب الشيعي، ولا للفاطميين أصحاب الدعوة الشيعية في تلك الفترة، بل إن المراسلات بين الطرفين كانت قائمة طوال فترة سيطرة بني بويه بل إنه لمزيد من إذلال أهل السنة فقد قام بعض أمراء بني بويه بإرغام السنيين على الاشتراك في أعياد الشيعة(٢٦).

- لقد كان لسياسة بني بويه أسوأ الأثر على الأوضاع في العراق، فهذه السياسة عجلت بقيام الفتن الطائفية وثورات الجند وانتشرت الفوضى والاضطراب، كما جعلت عدداً من الدويلات والإمارات التي كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية تتراجع في ولائها، كما أن الصراع الذي ساد بين بعض أفراد بني بويه على السلطة والنفوذ مثل إضعافًا وضغطًا آخر على هذه الخلافة المتداعية.

في ظل هذه الظروف التي سيطرت على الخلافة العباسية والتي استمرت -كما قلنا- مائة وثلاث عشرة سنة (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م) سيطر فيها البويهيون على الحكم وتوارثوه بينهم، بزغ نجم السلاجقة كقوة جديدة تسعى إلى فرض نفوذها ووجودها على الساحة(٢٧).

بدأت صلة السلاجقة بالعباسيين حين بعثوا إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣٠-١٠٤٧م) برسالة عقب انتصارهم على الغزنويين أظهروا فيها طاعتهم للخلافة، وكانت رسالتهم محل سرور الخليفة الذي أرسل إلى طغرل بك رسولاً حمل إليه اعترافًا بدولة السلاجقة(٢٨). ومما سهل نمو العلاقة بين الطرفين أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني الذي يعد الخليفة العباسي رئيسه الأعلى(٢٩).

---

(٢٦) **حسن إبراهيم حسن**، *تاريخ الإسلام السياسي*، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م، ج٣، ص ٤٤.

(٢٧) **محمد مسفر الزهراني**، *نظام الوزارة في الدولة العباسية (العهدان «البويهي والسلجوقي»)*، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٢٣.

(٢٨) **الأصفهاني (علي بن محمد البنداري)**، *تاريخ دولة آل سلجوق*، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٠هـ، ص ٨.

(٢٩) **الزهراني**، مرجع سابق، ص ٣٣.

وقد توثقت علاقة السلاجقة بالعباسيين قبل دخول السلاجقة بغداد بما يقارب ثمانية عشر عامًا ، وجاءت اللحظة المناسبة أمام السلاجقة لدخول بغداد عندما اضطربت الأمور بها ، واضطر الخليفة للاستنجاد بالسلطان طغرل بك السلجوقي والذي انتهز الفرصة وسار بجيوشه إلى بغداد ، فدخلها سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م[٣٠].

وبدأ نوع من تطور العلاقات بين الطرفين لتحل القوة الجديدة محل القوة السابقة ، وتصاعد هذا التطور إلى أن حصل السلطان السلجوقي على تفويض من الخليفة سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م بأن يحكم البلاد حكمًا كاملاً وتمثل هذا في قول الخليفة: " أمير المؤمنين حامد لسعيك ، شاكر لفضلك ، أنس لقربك ، زائد الشغف بك ، قد ولاك جميع ماولاه الله تعالى من بلاده ، وود إليك فيه مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمه عليك في ذلك ، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية "[٣١] ثم كتب الخليفة تفويضًا رسميًا بذلك.

ولم يكتف السلطان السلجوقي بتركيز السلطة في يديه ، إنما بدأ يسعى لتدعيم هذا النفوذ السياسي برابطة اجتماعية قوية مع الخلافة العباسية ، فنجده يتقدم لخطبة ابنة الخليفة القائم بأمر الله ، وهو أمر غير مسبوق ، فانزعج الخليفة لذلك وأظهر التمنع في البداية ولكنه أمام الضغط السلجوقي مالبث أن وافق ليتم الزواج سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م[٣٢].

لقد مكن النفوذ الذي حصل عليه السلاجقة في الدولة العباسية لدولتهم ولسيطرتهم وأتاح لهم فرصة التوسع في أنحاء مختلفة منها آسيا الصغرى.

الفتح السلجوقي لآسيا الصغرى ونتائجه

يعود الاحتكاك العسكري بين السلاجقة والدولة البيزنطية إلى زمن الإمبراطور باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م/ ٣٦٦-٤١٦هـ) حينما كان السلاجقة لايزالون خاضعين

(٣٠) الحسيني ، مصدر سابق ، ص ١٩.
(٣١) ابن الأثير ، مصدر سابق ، ج٨ ، ص ٨٠.
(٣٢) البنداري ، آل سلجوق ، مصدر سابق ، ص ٢٠.

لحكم الغزنويين ، وازدادت غارات السلاجقة على الأراضي البيزنطية بعد استحواذهم على فارس ، إذ قاموا بقيادة طغرل بك سنة ٤٤٦هـ (١٠٥٤م) بتخريب الجهات القريبة من بحر « فان » في أرمينيا[٣٣] ولكنهم فشلوا في الاستيلاء على حصن ملاذكرد (مانزكرت).

وفي سنة ٤٥١هـ (١٠٥٩م) اندفعت الجيوش السلجوقية لأول مرة حتى بلغت سيواس[٣٤]. وأثار السلطان ألب أرسلان الذي خلف طغرل بك بعد وفاته سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م احتمال قيام تحالف بين الفاطميين (أعداء الخلافة العباسية) والبيزنطيين فحرص على أن يحمي نفسه من البيزنطيين بالاستيلاء على أرمينيا قبل أن يمضي إلى تحقيق غرضه الأصلي وهو مهاجمة الفاطميين[٣٥] فاشتدت حدة الغارات السلجوقية على أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، ففي ٢٩ شعبان ٤٥٦هـ/ ١٦ أغسطس ١٠٦٤م تعرضت « آني » حاضرة أرمينيا للهجوم على يد ألب أرسلان[٣٦] ثم ما لبث أن تبع الاستيلاء عليها انتصارات أخرى جعلت السلاجقة هم المسيطرون على أرمينيا.

ويضع المؤرخون عدة أسباب سهلت على السلاجقة الاستيلاء على « آني » وبالتالي الاستحواذ على أرمينيا كلها منها:

١) تفوق السلاجقة على الأرمن والبيزنطيين في فنون الحرب والحصار وصمودهم طويلاً أمام أسوار « آني » إلى أن نجحوا في فتحها.

٢) بُخل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر (١٠٥٩-١٠٦٧م/ ٤٥١-٤٦٠هـ) وإسناده حكم المدينة للحاكم الأرمني بنكراتيوس الذي تعهد بأن لايحمل الخزانة الإمبراطورية أية أعباء مالية ، إذ سيعتمد في تصريف أمور المدينة الدفاعية على

(٣٣) **ابن الأثير**، مصدر سابق ، ج٨ ، ص ٦٧.

(٣٤) **فايز نجيب اسكندر** ، غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية ، *دراسات في تاريخ وحضارة أرمينية* رقم (٦) ، الإسكندرية ، دار الفكر الجامعي ١٩٨٨م ، ص ١٥.

(٣٥) **رانسيمان** ، *تاريخ الحروب الصليبية* ، ترجمة الباز العريني ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧م ، ج١ ، ص ٩٤.

(٣٦) **فايز نجيب اسكندر** ، استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية ، *دراسات في تاريخ أرمينية* رقم (٣) ، الإسكندرية ، دار الفكر الجامعي ١٩٨٧م ، ص ٩.

مواردها المادية ، وبالتالي تقاعس الإمبراطور البيزنطي عن إرسال حامية للدفاع عن آني توفيراً للمال والجند والعتاد[٣٧].

٣) تهور الحاكم الأرمني بنكراتيوس وانقضاضه على مؤخرة الجيش السلجوقي أثناء عبوره البلاد الأرمينية في سلام فتسبب ذلك في اتجاه السلطان السلجوقي للانتقام منه.

٤) قلة الكفاءة العسكرية لبنكراتيوس- حاكم آني الأرمني - وإهماله القيام بالاستعدادات العسكرية اللازمة لمواجهة السلاجقة ، إذ أهمل تخزين المؤن والأقوات والمعدات الحربية ، بل وحارب الجيش السلجوقي بحامية عسكرية خائرة القوى.

٥) نجاح الجيش السلجوقي في إحداث فتحة في أحد أسوار المدينة ، ثم هدم بقية الأسوار والنفاذ إلى داخل العاصمة.

٦) نتج عن هدم الأسوار ضعف الروح المعنوية لسكان آني وانعدام مقدرتهم على المقاومة وفرارهم بحثًا عن مكان آمن.

٧) انسحاب حاكم المدينة إلى القلعة الداخلية مما أحدث بلبلة في صفوف السكان المحاصرين ، وتقاعس الجميع في الدفاع عن الأسوار[٣٨].

وكل هذه الأسباب تداخلت وسهلت للسلاجقة فتح واحد من أهم معاقل الإمبراطورية البيزنطية القريب من آسيا الصغرى.

على أن أهم الغارات الحاسمة بين البيزنطيين والسلاجقة كانت سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م حين خرج الجيش البيزنطي لاسترداد أرمينيا حيث التقى مع السلاجقة في موقعة ملاذكرد الشهيرة التي انهزم فيها البيزنطيون هزيمة ساحقة وتعدى أثر هذه الهزيمة إلى تأثيرات كبيرة سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا على الدولة البيزنطية ، وجاء هذا التحرك البيزنطي كمحاولة من الإمبراطور لوقف الاعتداءات السلجوقية على الإمبراطورية ،

---

(٣٧) **Ostrogorsky,** History of the Byzantine State, London, P. 94 .

(٣٨) فايز اسكندر ، المرجع السابق ، ص ٢٦.

بل إن السبب في اختيار رومانوس الرابع إمبراطوراً بعد أن آل العرش البيزنطي إلى ايدوكيا، كان لمقاومة وردع الخطر السلجوقي الذي أخذ يمزق الإمبراطورية(٣٩).

على أن الإمبراطور البيزنطي أرادها معركة فاصلة أعد لها عدتها، فكون جيشًا كبيراً تصل المبالغات به إلى نحو ٣٠٠ ألف مقاتل(٤٠) وأدوات حصار كثيرة، وتجاوزا لهذه المبالغات نقول إن الحملة فاقت استعداداتها ماسبقها من حملات، على أن السمة الغالبة هنا أن معظم جند هذه الحملة تكونوا من المرتزقة حيث كانت الإمبراطورية تعاني نقصًا هائلاً في الجند بسبب الإهمال الواضح للعسكرية والعسكريين الذي ساد في هذه الفترة وغلب على الحكم سيطرة الارستقراطية المدنية. شكل الكومان الترك(٤١) أكثر الفئات المأجورة عدداً، وتولى قيادتهم يوسف تارخانيوس Tarchaniores التركي المولد، أما الفرقة المختارة فتتمثل في الفرسان الدارعين من الفرنج والنورمان بقيادة روسل باليل النورماني Rousel Bailleul(٤٢)، الذي سنجده في أعقاب الهزيمة التي كان أحد أسبابها خيانته ينقلب على الإمبراطورية البيزنطية، كما شارك فيها أيضًا فرقة من الروس في عشرين ألف فارس(٤٣)، وبهذا الجيش الضخم، المتعدد المشارب والنزعات الذي لا

---

(٣٩) **Vasiliev,** History of Byzantine Empire, The University of Wisconsin Press, 1957, P. 314.

(٤٠) **ابن القلانسي (أبو يعلي حمزه)**، *ذيل تاريخ دمشق*، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٨م، ص ١٠٢.

ويروي **ابن الأثير** في حوادث سنة ٤٦٣ هـ أنهم كانوا مائتي ألف مقاتل، *الكامل*، ج ٨، ص ١٠٩. ويذكر **ابن الجوزي** أن جيش ألب أرسلان بلغ عشرين الفا، وجيش الإمبراطور تكون من خمسة وثلاثين ألفًا من الافرنج وخمسة وثلاثين الفا ... (بياض في الأصل) في مائتين بطريق ومقدم مع كل رجل منهم بين ألفي فارس إلى خمسمائة وكان معه خمسة عشر ألفا من الغز الذين من وراء القسطنطينية ومائة ألف نقاب وحفار ومائة ألف روزجاري وأربعمائة عجلة عليها السلاح والسروج والعرادات والمجانيق منها منجنيق يجره ألف رجل ومائتا رجل، **ابن الجوزي**، *المنتظم*، ج ٨، ص ٢٦١.

(٤١) الكومان Cuman، قبائل تركية الأصل، وكانت هناك صلات تربطهم بالقبائل السلجوقية، وكانوا وسطاء في العلاقات التجارية للإمبراطورية البيزنطية مع الروس والخزر وسكان البلاد المجاورة، انظر: **حسنين ربيع**، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٤٢) **رانسيمان**، *الحروب الصليبية*، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٧.

(٤٣) **ليلى عبد الجواد إسماعيل**، *تاريخ الروس من خلال المصادر العربية*، القاهرة، دار الثقافة العربية ١٩٩٠م، ص ١٨.

يصح الوثوق به خرج رومانوس في ربيع سنة ١٠٧١م/ ٤٦٣هـ ليسترد أرمينية من السلاجقة.

ويورد المؤرخون في تفاصيل موسعة خبر سير الإمبراطور نحو الشرق، وقد سلك الطريق البيزنطي القديم الذي اجتازه الأباطرة في حروبهم وجعل نصب عينيه أن يستولي على حصن أرمينية وأن يشحنها بالعساكر قبل أن يقدم الترك من الجنوب، ويذكر نفقور برينيوس[٤٤] أن الإمبراطور عقد مجلسًا حربيًا استشاريا ضم كبار قادته وأشهرهم وناقشوا خطة القتال واستشارهم الإمبراطور حول مواصلة الزحف لقتال السلاجقة في عقر دارهم أو البقاء في أراضي الإمبراطورية انتظارًا لوصول الأعداء، فاختلفت الآراء وكان رأي فريق المنافقين المتخلفين - على حد قول برينيوس- هو عدم الانتظار إطلاقا والإسراع بالزحف. وكان هناك معارضة لهذا الرأي، وانفض المجلس بفوز فريق الداعين إلى مواصلة الزحف، وانحاز الإمبراطور إلى هذا الرأي وكان ليون دياباتينوس Leon Diabatenos - وهو السفير الذي بعثه الإمبراطور رومانوس إلى ألب أرسلان - قد كتب رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي يعلن فيها أن السلطان ألب أرسلان علم بأخبار الحملة البيزنطية فانتابه الرعب بسبب هذا الحشد الهائل من الجند لذا ترك مقره ولاذ بالفرار إلى بغداد[٤٥]. فصدق رومانوس ماورد في هذا التقرير وقام بتقسيم جيشه إلى قسمين، احتفظ بالقسم الأول، أما الثاني فقد أرسله إلى اخلاط.

كانت خطة ألب أرسلان تقوم على جذب الإمبراطور داخل البلاد، وإثارته ليخاطر

---

(٤٤) **فايز نجيب اسكندر**، *البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد في مصنف نقفور برينيوس*، بحوث ودراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، رقم (١)، الإسكندرية: دار نشر الثقافة، ١٩٨٤م، ص ١٣.

(٤٥) أورد سبط بن الجوزي رواية تكاد تكون متفقة مع رواية برينيوس، إذ قال: « وردت رسل ملك الروم وضجر السلطان من المقام بحلب فكر راجعا .. وكان رجوعه شبه الهارب، وعاد رسول الروم مستبشرًا إلى صاحبه، فقوي بذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه » ولم يذكر سبط بن الجوزي اسم السفير الذي اعتقد ان ألب أرسلان قد فر هاربًا، مما يؤكد جهل البيزنطيين بخطط وإستراتيجية السلاجقة، انظر: **سبط ابن الجوزي**، *مرآة الزمان*، ج٩ نقلا عن صفحة رقم ٦٤. هامش رقم (٦٣) من تعليقات مترجم نقفور برينيوس السابق.

بنفسه ويتقدم إلى الأمام ، وكان السلطان يرسل بفرسانه إلى المعسكر البيزنطي وبمجرد وصولهم إليه يعودون على أعقابهم كأنهم يلوذون بالفرار ، وبفضل تكرار هذه التحركات الحربية تمكن السلاجقة من القبض على بعض القادة البيزنطيين(٤٦) .

تلقى رومانوس أثناء مقامه في مانزيكرت أنباءً عن اقتراب ألب أرسلان، فانحرف إلى جهة الجنوب الغربي ليلحق من جديد بالجيش قبل أن ينقض عليه السلاجقة ، غير أنه تناسى هنا مبادئ الحرب البيزنطية بإرسال الكشافة فكان أن انقض عليه ألب أرسلان وهو ينزل بالوادي في الطريق إلى اخلاط مترقبًا أتباعه وكان ثملا بانتصاراته السابقة التي ملأته بالتكبر والغطرسة(٤٧) . وكان ذلك يوم الجمعة ١٩ أغسطس ١٠٧١م/ ٤٦٣هـ وكانت هزيمة ساحقة حيث وقع الإمبراطور أسيرا بعد أن أصابته الجروح(٤٨) .

لقد اقترنت حملة رومانوس بمظاهر الفشل منذ بدايتها ، فهذا الخليط العجيب الذي حواه جيشه من القوميات المتنافرة كان عاملا هامًا في عدم التئام وحدة الجيش ، وكان فريق من القادة يكن العداوة للإمبراطور ، في حين انحازت فرقة الكومان الأتراك إلى السلاجقة بعد أن تغلبت عليهم رابطة الدم ولأنهم لم يتقاضوا أجورهم المتأخرة ، كما أن روسل باليل ومن معه من النورمان قرروا ألايخوضوا المعركة ، بالإضافة إلى أن أندرونيكوس دوكاس وهو أحد القادة الرئيسيين في جيش الإمبراطور قد سارع عندما رأى أن القضية خاسرة بترك المعركة والتوجه إلى القسطنطينية(٤٩)، كل ذلك أدى إلى الهزيمة.

ويحاول بعض المؤرخين البيزنطيين أن يشككوا في بسالة الإمبراطور وجهله بفنون الحرب والقتال مستندين إلى خطأ الإمبراطور حين قام بتقسيم جيشه إلى قسمين ،كما أن هناك مؤرخين بيزنطيين أيضًا يرجعون ذلك إلى أن الإمبراطور أراد أن ينفرد بالنصر دون القسم الثاني من جيشه(٥٠) .

(٤٦) فايز نجيب نقلاً عن برينيوس ، المرجع السابق ، ص ١٦ .
(٤٧) **ابن الأثير** ، *الكامل* ، مصدر سابق ، ج٨ ، ص ١١٠ .
(٤٨) **رانيمسان** ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٩٩.
(٤٩) فايز نجيب نقلاً عن برينيوس ، مرجع سابق ، ص ٨٤.
(٥٠) انظر آراء هؤلاء المؤرخين عند : **Vasiliev,** *op.cit.* P. 325.

وهناك سبب آخر هو أن الأرمن قد انسحبوا مثلهم مثل الكومان والأتراك من القتال بسبب العداوات التي سادت بينهم وبين بقية الفرق قبيل الحرب ، كما أن سوء الحظ الذي لازم رومانوس جعله يرتكب عدة أخطاء لم تكن مقصودة أدت في مجملها إلى هزيمته(٥١).

وتسهب المصادر العربية في وصف كيفية أسر رومانوس وكيف تم التعرف عليه من بين الأسرى، وتذكر حوارا تم بينه و بين ألب أرسلان سبق عملية إطلاق سراحه وأخذ الفدية منه وتوقيع معاهدة(٥٢). على أن الذي يجدر ذكره هنا أن الإمبراطور لقي في أسره معاملة طيبة وتقرر إطلاق سراحه بعد ثمانية أيام,وجرى الاتفاق على أن يبذل فدية ، وأن يؤدي جزية سنوية وأن تعقد مهادنة بين الجانبين ، وأن يتم تبادل الأسرى ، وأن يرسل عساكر الروم متى طلبها ألب أرسلان ، وأن يعيد للمسلمين أنطاكيه والرها ومنبج وكافة الأراضي التي فتحها السلاجقة في آسيا الصغرى(٥٣).

كانت موقعة ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة ، وتاريخ غرب آسيا بصفة خاصة ؛لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم في أكثر أجزاء آسيا الصغرى(٥٤). إلا أن تأثيرها على الدولة البيزنطية كان أكبر وأخطر ، و أشد ما وقع على

---

(٥١) كان من هذه الأخطاء ماذكر من أنه بمجيء المساء اعتقد رومانوس أن الأتراك السلاجقة سوف لايخوضون غمار القتال ، لذا قرر إيقاف عملياته الحربية قبل إسدال الليل ، ولإبلاغ ذلك إلى جيشه الجرار أصدر أوامره بإعادة الراية الإمبراطورية إلى المعسكر ، ولكن هذه الإشارة أسيء فهمها ، إذ اعتقد الجميع أن الإمبراطور إما هزم أو توفى ، فعمت الفوضى العارمة ربوع المعسكر البيزنطي ، وانتهز السلاجقة تلك الفرصة المواتيه لينقضوا على الجيوش البيزنطية المنسحبة ، برينيوس ، ص ٩٤.

(٥٢) **ابن القلانسي** ، ص ١٠٤ ، **ابن الأثير** ، *الكامل* ، ج ٨ ، ص ١١٠ ، **ابن العبري (ابن الفرج جمال الدين)**، *تاريخ الزمان* ، ترجمة إسحاق ارملة ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٨٦م ، ص ١١٠ .
ويذكر **ابن الأثير** أن الفدية كانت ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، بينما يذكر العبري : أنها كانت عشرة ألف ألف دينار خفضت إلى ألف ألف وثلاثمائة وستون جزية سنوية !! ويبدوا أن المصادر العربية تعودت المبالغة في الأرقام دون تدقيق بينما تشير المراجع الأجنبية إلى أن رومانوس التزم بدفع الفدية والتي تم جمع جزء منها بعد ذلك من عدة مصادر بعيداً عن خزانة الإمبراطورية وفاءً بالتزام رومانوس وتعهده. **Ostrogorsky,** *op.cit.* p. 105.

(٥٣) **حسنين ربيع** ، مرجع سابق ، ص ١٩٠ .

(٥٤) **عبد النعيم محمد حسنين** ، *دولة السلاجقة* ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

الإمبراطورية البيزنطية من كوارث حاسمة ، ولم يخف البيزنطيون أنفسهم إحساسهم وشعورهم ، إذ أشار مؤرخوهم مرة بعد أخرى إلى ذلك اليوم العصيب ، وظهر أن البيزنطيين فقدوا على أرض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم النصراني ، حتى أن وليم الصوري أدرك أن كارثة ملاذكرد بررت الحركة الصليبية ؛ لأن الإمبراطورية البيزنطية لم يعد بوسعها حماية العالم النصراني في الشرق(٥٥) .

ومن أهم الدلالات على عظم الكارثة أن الإمبراطورية البيزنطية صارت عاجزة عن أن تلقي بجيش في المعركة لسنوات عديدة مقبلة ، كما أن خسارتها لآسيا الصغرى قد أفقدها أهم مستودع لتزويد الجيش بالمدافعين عن الإمبراطورية ، فمن أقاليمها جند الأباطرة معظم قوات الجيش البيزنطي(٥٦) .كما أن تأثير ملاذكرد على الإمبراطورية تمثل فيما سادها من تخبط سياسي بعد ذلك حيث إن رومانوس بعد عودته إلى القسطنطينية لم يجد ماينتظره سوى العزل والسمل لعينيه، إلا أنه قبل أن يتم ذلك خاض رومانوس حروبًا أهلية مع ميخائيل السابع وأمه ايدويكا ومع الحزب المدني الارستقراطي الذين أصروا على عزله ، وقد أدت هذه الحروب التي تمت في جولات إلى مزيد من الإنهاك لقوى الإمبراطورية(٥٧) .

ولعل سؤالاً يبرز هنا : لماذا لم يقم ألب أرسلان بمساعدة الإمبراطور رومانوس وفقا للمعاهدة المبرمة بينهما في حروبه التي خاضها خلال عام وفي أكثر من جولة لاستعادة العرش؟؟! ولعل الإجابة هي أن ألب أرسلان كانت خطته في تلك الفترة دعم سلطته في منطقة فارس والعراق تحت راية الخلافة العباسية في الظاهر ونفوذ السلاجقة في الواقع كما أنه انشغل بمواجهة بعض الثورات التي اندلعت ضده كما حصل في حصن فضلون الذي أعلن صاحبه العصيان ، وانشغاله في قمع فتنة الخانيين بزعامة شمس

---

(٥٥) **وليم الصوري** ، الحروب الصليبية ، ترجمة د.حسن حبشي ، الطبعة الأولى ، *سلسلة تاريخ المصريين* رقم (٤٥) ، القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١م ، ج ١ ، ص ٨٤.

(٥٦) **فيشر** ، *تاريخ أوروبا – العصور الوسطى* ، ترجمة محمد مصطفى زيادة و السيد الباز العريني الطبعة الخامسة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٩م، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٥٧) **فايز نجيب اسكندر** ، موقعة ملاذكرد في *القسطنطينية*، مرجع سابق، ص ١٢ .

الملوك صاحب طمعاج(٥٨). على أن الأهم هو أن ألب أرسلان يمكن أن يكون قد أراد أن تزداد الدولة البيزنطية ضعفًا على ضعفها حتى يسهل عليه بعد ذلك التوسع ومواجهة البيزنطيين وهم أكثر ضعفًا(٥٩).

ومن بين النتائج التي برزت في أعقاب معركة ملاذكرد أن الإمبراطور ميخائيل السابع لم يجد قوة يستعين بها لكبح المتمردين مثل روسل باليل سوى الاستعانة بالكومان والبُجناك، كذلك عندما ثار نقفور بوتانياتس لم يجد أمامه سوى هؤلاء يستعين بهم، وكل ذلك مكن للسلاجقة في آسيا الصغرى، وفسح المجال أمامهم لمزيد من الاستقرار، ولمزيد من التوسع وتعاظم القوة. على أن أهم النتائج هي ما قام به الإمبراطور ميخائيل السابع حين استنجد بالبابا جريجوري السابع بابا روما ضد السلاجقة، فاتحا بابا سيصعب إغلاقه فيما بعد من التدخل اللاتيني في أمور بيزنطة(٦٠)، فقد وجد البابا جريجوري السابع في طلب ميخائيل السابع فرصة نادرة لمحاولة فرض سلطان روما من جديد على الكنيسة البيزنطية الشرقية التي كانت تنافس الكنيسة الغربية؛ لأن وحدة الكنيسة النصرانية تحت إمرة البابا كانت أحد الأهداف الرئيسة لحركة

---

(٥٨) **ابن الأثير**، *الكامل في التاريخ*، ج ٨، ص ١١٢.

(٥٩) تتهم دائرة المعارف الإسلامية السلاجقة بأنهم كانوا أبعد الناس عن التعصب للإسلام، مستدلة على ذلك من إطلاق سراحهم للإمبراطور رومانوس، ومن حسن معاملتهم للنصارى من رعاياهم، (ص٢٩، المجلد الثاني عشر) وهو اتهام في غير محله، فإن السلاجقة هم ممن حسن إسلامهم ودافعوا عن الدولة الإسلامية فترات طويلة وقد يكون في تصرف ألب أرسلان في إطلاق سراح الإمبراطور: حسن سياسة وحكمة وتصرف، وفي معاملتهم للرعايا النصارى تطبيق لشرائع الإسلام في حسن معاملة أهل الذمة، لطمأنتهم وأمن جانبهم، كما أن الجوار والعلاقات المستمرة بين السلاجقة والبيزنطيين استدعت وتستدعي مثل هذا التصرف، على أننا سنلاحظ فيما بعد حينما أحسن الإمبراطور الكسيوس كومنين معاملة أهل مدينة نيقية وكان من ضمنهم زوجة السلطان السلجوقي قلج أرسلان بعد أن استسلمت نيجه لحصار الصليبيين لها، إن ذلك التصرف يغضب الصليبيين الذين لم يتعودوا مثل هذه التصرفات من العفو عند المقدرة، وتأمين الأسرى، وإطلاق سراحهم احتسابا لما قد يحدث بعد ذلك من أحداث، فلاموا الإمبراطور وشكوا أنه خان الحرب الصليبية وبدأ يتعامل حسنا مع عدوهم.

والجدير بالذكر أن محرري دائرة المعارف الإسلامية هم ألمان وقد صدرت أولا باللغة الألمانية والفرنسية والانجليزية، لذلك لانستغرب هذا الاتهام، كما لا نستغرب اتهام الصليبيين للإمبراطور الكسيوس، فقد يكون ذلك هو المنطق اللاتيني!

(٦٠) **اسحق عبيد**، *روما وبيزنطة*، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م، ص ٤٩.

الإصلاح الكلوني[٦١] التي سبق وأعلنها البابا جريجوري السابع ، وعلى هذا فقد كتب البابا إلى الإمبراطور في ٩ يوليو ١٠٧٣م/ ٤٦٦هـ يدعوه إلى بذل قصارى الجهد لتوحيد الكنائس ، كما أرسل كتابًا موجهًا إلى « سائر النصارى » في غرب أوروبا يدعوهم للتطوع في حملة لمساعدة أهالي القسطنطينية ضد هجمات العدو المتبربر - على حد قوله - وفي نفس العام أرسل خطابًا ثانيًا يحث فيه أهالي الغرب اللاتيني للهجوم على الشرق وإنقاذ إخوانهم النصارى الذين يهددهم العدو. كما أعلن أنه سيقوم بنفسه بقيادة هذه الحملة لينقذ النصارى ، غير أن أحداث أوروبا بعد ذلك ، والانقلاب السياسي الذي حدث في القسطنطينية ، وخلع ميخائيل السابع ، جعل البابا يتراجع عن حملته ، وبدأ يصدر قرارات حرمانه ضد أباطرة القسطنطينية الجدد[٦٢]، بل وجد من المؤرخين بعد ذلك من يؤكد أن الحملة الصليبية الأولى لم تكن إلا ثأرًا من هزيمة ملاذكرد[٦٣]. على أن هناك من المؤرخين الغربيين من يرى أن المبرر الوحيد لتعطيل دعوة البابا جريجوري السابع لإنقاذ بيزنطة وإمبراطورها الذي بلع كبرياءه وناشد الغرب المساعدة ، هو عودة قضية الخلاف الديني إلى البروز وشعور أوروبا بالرضا عن الحالة التي وصل إليها الإمبراطور والإمبراطورية البيزنطية[٦٤].

---

(٦١) ينسب هذا الإصلاح الذي تداعت إليه الكنيسة الغربية ، وعمل على إنجازه عدد من الباباوات ورجال الدين إلى دير كلوني في حوض نهر الرون الأعلى ، وتم الإعلان عنه في فترة البابا جريجوري السابع ، ويهدف إلى إصلاح أمور الكنيسة وتقوية موقف بابا روما وعدم خضوعه للسلطة الزمنية للإباطرة والملوك ، وإصلاح أوضاع رجال الدين بمنع الرشوة وشراء المناصب الدينية وزواج رجال الدين والكثير من مشاكل الكنيسة الداخلية ، وكان من الطبيعي بعد الإعلان عن هذا الإصلاح أن يحدث الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ، لمزيد من التفاصيل عن هذا الإصلاح ونتائجه ، انظر: **محمود سعيد عمران** ، معالم *تاريخ أوروبا في العصور الوسطى* ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦م ، ص ٢٨٩.

(٦٢) **أرنست باركر** ، *الحروب الصليبية* ، ترجمة الباز العريني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٦٧م ، ص١٩ ، وهو يرى أن البابا جريجوري السابع لم يقترح كما تردد القول الدعوة الى الحرب الصليبية بل أشار بحملة كبيرة تستطيع أن تسترد آسيا الصغرى من يد المسلمين وتعيدها الى الإمبراطورية البيزنطية (نفس المرجع ونفس الصفحة) وكذلك **إسحاق عبيد** ، مرجع سابق ، ص٥٠ ، **وفيشر** ، مرجع سابق ، ص١٥٦ ، وهو يرى أن فكرة الحروب الصليبية نبعت لا من القسطنطينية بل من روما.

(٦٣) **على حبيبه** ، *المسلمون والصليبيون* ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٩٠م ، ص ٥٥.

(٦٤) **هستر** ، *أوروبا في العصور الوسطى* ، ترجمة : محمد فتحي الشاعر ، القاهرة ، مكتبة الانجلوا المصرية ، ١٩٨٨م ، ص ١٧٤.

وهكذا سقطت آسيا الصغرى في أيدي السلاجقة وأخذوا في التوسع على حساب الأراضي البيزنطية.

وعندما تولى الكسيوس كومنين العرش البيزنطي (١٠٨١م/ ٤٧٤هـ) كان السلاجقة يسيطرون على ساحل بحر مرمره الشرقي، كما كان زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش قد اتخذ من نيقية عاصمة له، وبدأ يشن الغارات على إقليم بيثينيا، بل وحاول اجتياز بحر مرمره إلى الشاطئ الأوروبي(٦٥).

وحاول الإمبراطور الكسيوس إبعاد السلاجقة من بعض المواقع التي فتحوها، متبعًا في ذلك نوعًا من حرب العصابات، حقق من وراءها شيئًا من النجاح حيث اضطر السلاجقة إلى التخلي عن مواقعهم على طول ساحل بحر مرمره.

ولكن مشاريع الإمبراطور مالبثت أن توقفت بسبب الضغط النورماني، فاضطر إلى تحسين علاقته مع سليمان بن قتلمش وعقد معه معاهدة حصل بموجبها على فرقة سلجوقية شاركت في حرب الكسيوس ضد النورمان، وقدرت بسبعة آلاف مقاتل(٦٦).

وبدأت العلاقات البيزنطية السلجوقية بالتوتر منذ وفاة سليمان بن قتلمش عام ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) حيث قتل خلال حربه مع تتش(٦٧). فسادت الفوضى بين خلفائه وظهر عدد من الأمراء التركمان على مسرح الأحداث وفي مقدمتهم أبو القاسم الذي كان سليمان بن قتلمش قد عينه على نيقيه قبل موته، وغيره من الأمراء، وحاول الإمبراطور الكسيوس تفتيت هؤلاء الأمراء واستعادة أملاك الإمبراطورية في آسيا الصغرى، خاصة أن أبا القاسم كان يخطط لأن يكون سلطانًا على كافة أتراك آسيا، بل والاستيلاء على القسطنطينية حتى إنه بنى أسطولا لهذا الغرض(٦٨).

---

(٦٥) **عادل زيتون**، *العلاقات السياسية والكنيسة*، دار دمشق للطباعة، دمشق، ١٤٠٠هـ، ص ٧٧.

(٦٦) **أحمد عبد الكريم سليمان**، *المسلمون في شرق البحر المتوسط*، مرجع سابق، ج١، ص ٢٤٥.

(٦٧) **ابن الأثير**، *الكامل*، مصدر سابق، ج٨، ص ١٤٠، وتتش هو حاكم دمشق السلجوقي وابن ألب أرسلان وكان أخوه ملكشاه قد أقطعه بلاد الشام وما يفتحه من تلك النواحي سنة ٤٧٠هـ، انظر: **ابن الأثير** نفس المصدر، ص ١٢٦.

(٦٨) **سعيد عاشور**، *الحركة الصليبية*، ط ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م، ج١، ص ١١٨.

بدأ الإمبراطور يستفيد من هذه الأوضاع لمصلحته ، مستخدما سلاح الدبلوماسية والتآمر الذي اشتهر به في ضرب الواحد بالآخر ، ويعرض عليهم الرشاوى ويعد الواحد بعد الآخر بالتحالف ، وظلت نيقيه ست سنوات في حوزة أبي القاسم ، ولم يخرجه منها سوى مجيء قلج أرسلان (ابن سليمان بن قتلمش) سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م بعد أن أطلق بركياروق سراحه بعد وفاة ملكشاه(٦٩) . استطاع الإمبراطور خلال هذه الفترة أن يوطد مركزه وأن يسترد عدداً من الأملاك وكان يحلم باستعادة موطن أسرته قسطموني في بافلاجوينيا ، ولم تمنعه من ذلك سوى مؤامرات البلاط التي وضع حداً لها بعد ذلك(٧٠) .

كما استطاع الإمبراطور الكسيوس التخلص من أحد أهم أعدائه في آسيا الصغرى وهو جكا أمير ازمير الذي كان بالغ الخطورة ، وكان يتطلع إلى أن يلي عرش الإمبراطورية ولجأ إلى استخدام اليونانيين الثائرين على الكسيوس ، لكنه أدرك أهمية الحاجة إلى قوة بحرية كما حاول أن ينظم الأمراء الأتراك في تحالف فزوج ابنته لقلج أرسلان ، وأصبح في الفترة ١٠٨٠-١٠٩٠م سيداً على ساحل بحر ايجه وجزائر ليسبوس ورودس وغيرها ، واستطاع الإمبراطور هزيمته عند مدخل بحر مرمره غير أن خطره ظل باقيًا حتى استطاع الإمبراطور إقناع صهره قلج أرسلان بالتخلص منه حتى لايطغى على شخصيته ، فكان أن استجاب لنصيحة الإمبراطور ودبر له وليمة مسمومة

---

(٦٩) روى **ابن الأثير** أن سبب وفاة ملكشاه أنه أكل لحم صيد فأكثر منه فأخذته حمى حادة فتوفي منها ، وكان مولده في جمادى الأولى سنة ٤٤٧هـ ، وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة وستة أشهر ، وكان ملكه نحو عشرين سنة ، ولما توفى ضبطت زوجته "قركان" العسكر وكتمت موته فلم يلطم أحدا وجها ، ولم يشق عليه ثوبًا ، ولم يسمع بسلطان مثله توفى ولم يصلَّ عليه أحد ، ولم يجلس أصحابه للعزاء سواه ، وأرضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدها محمود ، وعمره أربع سنوات ، وسارت الى أصفهان ، وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه - وهو الأكبر - فطلب السلطة فأخذها وتوفي محمود : **ابن الأثير** ، *التاريخ الباهر للدولة الأتابكية في الموصل* ، تحقيق عبد القادر طليمات ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ١٩٦٣م ، ص ص: ١١-١٢.

(٧٠) **رانسيمان** ، *الحروب الصليبية* ، ج ١ ، ص ١١٨ .

في نيقيه ذهب ضحيتها(٧١). وفي أواخر عام٤٨٤هـ/ ١٠٩١م احتل تزاخاس(٧٢) أكبر جزيرة بيزنطية في بحر ايجه وهي جزيرة ميلتين، وشعر الإمبراطور بضرورة توجيه ضربة له، وبعث له بجيشين واستطاع هزيمته واستعادة جزيرة ميلتين منه، إلا أنه عاود تمرده فاتفق الكسيوس مع السلطان قلج أرسلان. ضده، إلا أن تزاخاس استمر في تمرده حتى مجيء الحملة الصليبية فكان سهلاً على الإمبراطور مطاردته حتى ازمير(٧٣).

استمر الإمبراطور الكسيوس كومنين في سياسته العسكرية والدبلوماسية مستخدما الحرب تارة والدبلوماسية تارة أخرى، ومستعينًا في حربه مع السلاجقة بالجنود المرتزقة في الوقت الذي أخذت فيه دولة السلاجقة في التدهور، ففي سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، مات ملكشاه الذي كان يسيطر ويضبط الدولة التركية، وتلي وفاته نشوب الحرب الداخلية بين أبنائه وشارك أمراء آسيا الصغرى في هذه الحرب الداخلية وانشغلوا بها، لذلك خف ضغطهم على الإمبراطورية البيزنطية، وبالتالي فإن هذا ينسف الرأي الذي روجه اللاتين من أن السلاجقة وتعسفهم هو وراء إعلان الحرب الصليبية، فهم في عام ٤٩٨هـ/ ١٠٩٥م أضعف مما جردته لهم أوروبا من حملات وكان أكثر العارفين بذلك الإمبراطور الكسيوس كومنين الذي فوجيء بمقدم العدد الغفير من رجال الحملة الصليبية بشقيها الشعبي وحملة الأمراء، فالكنيسة الغربية كان لها أهداف أخرى غير نجدة الإمبراطورية البيزنطية.

السلاجقة والحملة الصليبية الأولى

هناك من المؤرخين من يرى أن الحروب الصليبية كانت نتيجة مباشرة للمد السلجوقي في آسيا الصغرى، واستجابة لصرخة الاستغاثة التي أطلقها الإمبراطور البيزنطي

(٧١) المرجع السابق، ج ١، ص ١١٩.

(٧٢) **تزاخاس**، هو قرصان تركي، كان يعيش في شبابه بالقسطنطينية، وكان قد حصل من الإمبراطور بوتانياتوس على ألقاب تشريفية، وكان يعرف ضعف البحرية البيزنطية فتجهز بأسطول صغير على سواحل آسيا الصغرى، مما أتاح له في عملياته الأولى التي خاضها نهب الموانى، وأصبح ثريًا ووسع أسطوله البحري، وأصبح له مطالبه السياسة، حتى إنه أصبح مهيبا يخشى بأسه.

(٧٣) **عادل زيتون**، مرجع سابق، ص ٨١.

الكسيوس كومنين باتجاه الغرب الأوروبي لإنقاذه من المسلمين[٧٤]. وهم يستشهدون في ذلك بتلك الرسالة التي بعثها الإمبراطور إلى صديقه روبرت الأول أمير الفلندرز[٧٥] يطلب منه سرعة نجدته ،لأن الأتراك يحاصرون عاصمته ، وبذلك الوفد البيزنطي الذي كان يتجول في أنحاء الغرب الأوروبي لجمع الجنود لصالح الجيش البيزنطي ، ومشاركة هذا الوفد في مؤتمر بياتشنزا[٧٦] الذي مهد فيه البابا اوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩م) لدعوته التي أطلقها في مؤتمر كليرمون الشهير سنة ١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ معلنًا الدعوة للحروب الصليبية.

على كل حال بدأ الغرب يتجهز لتلبية دعوة البابا أوربان الثاني ، وحددت البابويه تاريخًا لانطلاق حملتها الكبيرة هو ١٥ أغسطس ١٠٩٦م/ ٣ رمضان ٤٩٠هـ ومكانًا ليلتقي فيه المحاربون هو القسطنطينية[٧٧].

والتقط دعوة البابا أوربان عدد من الدعاة والمتحمسين هم قوام ماعرف بالحملة الشعبية أو حملة العامة ، وكانوا أول من وصل إلى القسطنطينية لتبدأ إرهاصات الحملة الصليبية وأولى صداماتها.

فوجيء الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بمقدم هؤلاء العامة ، كذلك فوجيء أهالي الإمبراطورية فقد رأوا لأول مرة رهبانًا وقساوسة وأناسا في أسمال بالية يحملون السلاح ، ولكن مناظر هؤلاء وتصرفاتهم في حين استحقت أحيانا المقاومة ورد

---

(٧٤) **باركر** ، مرجع سابق ، ص ٢٠.

(٧٥) روبرت الأول وهو الكونت روبرت الأول دي فلاندرز ، وقد حكم من سنة ١٠٧١-١٠٩٣م ، وكان من كبار رجال الإقطاع في الغرب الأوروبي ، وبلاده هي الفلاندرز أو الأراضي الواطئة أو بلاد الفلمنك إحدى مقاطعات فرنسا ، وتمتعت بمكانه مرموقة في هذه الفترة من الناحية السياسية والاقتصادية ، انظر: **جوزيف نسيم يوسف** « الدافع الشخصي للحروب الصليبية ، مجموعة أبحاث تحت عنوان » دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٨م ، ص١٢ ، وحول هذه الرسالة يدور الكثير من الجدل ولاتوجد براهين قطعية تؤكد إرسالها.

(٧٦) تقع مدينة بياتشنزا في شمال إيطاليا ، وكان يعقد بها مجمع كنسي برئاسة البابا أوربان الثاني وعندما علم البابا بوجود الوفد البيزنطي دعاه لبسط قضيته أمام المجتمعين من الأساقفة والقساوسة وفي نهاية المؤتمر بدأ البابا يبلور خطته للدعوة إلى الحروب الصليبية.

(٧٧) **أسد رستم** ، كنيسة انطاكيه ، منشورات المكتبة البولسية ، بيروت ١٩٨٨م ، ج٢ ، ص ٢٦٦.

العدوان، فإنها استدرت في أحيان أخرى الشفقة والإحسان.

وتعهد بطرس الناسك[٧٨] بضمان تصرفات جنده ، ألا أن رجاله لم يحترموا هذا التعهد، والحقيقة أن بطرس لم يكن يستطيع أن يسوس الجنود الذين جمعهم ، ولذلك فتعهداته سرعان ما كانت تتلاشى وتعليماته للجند سرعان ماكانت لايعبأ بها.

عسكر الصليبيون في منطقة تسمى « سيفتوت » على شاطئ بحر مرمره واستمروا في فوضويتهم ونهبهم للدور والقصور على طول شاطئ بحر مرمره رغم إقامتهم الطيبة والذين كان منهم بطرس الناسك وجوتيه المفلس وعدد آخر من المغامرين. وكان هؤلاء من الدعاة والمتحمسين من العامة - كما يقول وليم الصوري -[٧٩] رغم شتى صنوف المؤن التي كانت تصلهم من القسطنطينية والكميات الضخمة من البضائع التي تعرض عليهم كل يوم للبيع ، وكان الإمبراطور يواصل تحذيراته لهم بعدم إثارة الأتراك ، وأن يؤجلوا تحركاتهم إلى حين وصول الحملات النظامية ، إلا أنهم واصلو تحركاتهم حتى منطقة نيقوميديا - التي كانت على مقربة من نيقة عاصمة السلاجقة- وكانت نيقوميديا في تلك الفترة مهجورة ، وحدث في هذا الموقع انقسام على بطرس ، حيث دار شجار بين الألمان والإيطاليين من جهة وبين الفرنسيين من جهة أخرى[٨٠]، فخرج الأولون على قيادة بطرس واختاروا « رينالد » الإيطالي قائداً لهم ، وبقوة قوامها سبعة آلاف جندي سار « رينالد » يتوغل في آسيا الصغرى ، وأقاموا عند حصن يسمى كيبوتس وكان الإمبراطور الكسيوس قد أقام هناك قلعة لتكون معسكراً حصيناً وقاعدة أمامية للتصدي للسلاجقة ، وكان بها كميات وفيرة من الطعام وسائر المأكولات ، وفي طريقهم

---

(٧٨) بطرس الناسك ، Peter the Hermit أحد الشخصيات التي أفرزتها الحملة الصليبية الأولى ، وكان أحد أنشط الدعاه إلى الحملة ، وكان قد زار بيت المقدس وحمل تقارير إلى البابويه ، ادعى أن هاتفًا يدعوه للحج مرة أخرى ، ولم يكن من ذوي المكانة ، ولكنه كان بارعًا في مخاطبة الرعاع ، وكان يسير حافي القدمين في ثياب قذرة ، ويمتطي حماراً أعرج ، ويقتصر في طعامه على السمك ، ويشبهه بعضهم بأنه أحد « المجذوبين » الذين حفلت بهم العصور الوسطى ، لمزيد من التفاصيل عنه انظر : **وليم الصوري** ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٠٦ .

(٧٩) **وليم الصوري** ، مصدر سابق ، ص ص: ١٢٤-١٢٥ .

(٨٠) **رانسيمان** ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٨٦ .

إليها لم يوفروا قطعان الماشية والأغنام.

وشعر بقية الجند الذين ظلوا على ولائهم لبطرس وقيادته بالغيرة حين بلغتهم أخبار غنائم زملائهم الإيطاليين والألمان، وبدأوا يتجهزون لحملات مماثلة، مستغلين غيبة بطرس في القسطنطينية(٨١).

وينفرد المؤرخ المجهول بذكر أخبار ماحل بجماعة رينالد فيقول «ولما علم الترك باحتلال النصارى لهذه القلعة نهضوا لمحاصرتها، وكان أمامها بئر وعند سفحها نبع ماء حار، فنصب «رينالد» بجواره كميناً لاقتناص الترك الذين وصلوا يوم ١٩ سبتمبر ١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ حيث وجدوا «رينالد» ورفاقه فوثبوا عليهم وفتكوا بعدد كبير منهم، ولاذ الباقون هربا إلى القلعة معتصمين بها، لكن سرعان ماحاصرهم الترك فيها، ومنعوا عنهم الماء، فاشتد الظمأ برجالنا شدة دفعتهم لفصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمائها، وألقى الآخرون الخرق معلقة بالخطاطيف في الكنف وعصروها في أفواههم، وكان أحدهم يبول في يد رفيقه ثم يشرب الاثنان وحفر بعضهم الأرض الرطبة، واضطجعوا فيها وأهالوا التراب الرطب على صدورهم، وهكذا وصلت شدة ظمئهم إلى تلك الحال.... واستمرت هذه المحنة ثمانية أيام، ثم عقد زعيم الألمان اتفاقاً مع الترك وعاهدهم فيه على أن يسلمهم رفاقه، وتظاهر بالخروج للقتال ثم هرب إليهم، وحذا حذوه الكثيرون فتبعوه، ولقي المنية كل من أبى إنكار السيد (أي ترك النصرانية) أما الذين بقوا على قيد الحياة فقد تقاسمهم العدو كأنهم الأنعام السائمة، ومضوا يتهادون البعض ويبيعون البعض الآخر، وأرسل بعضهم إلى خراسان وإنطاكية وحلب....»(٨٢).

ولم تسلم بقية الجيش التي بقيت في معسكر بطرس من الفوضى، كما أنها لم تستمع

---

(٨١) **وليم الصوري**، مصدر سابق، ص ١٢٦.

(٨٢) **المؤرخ المجهول**، *أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس*، ترجمة د.حسن حبشي، *القاهرة*، دار الفكر العربي، ١٩٥٨م، ص ٢٠-٢١، ويلاحظ أن الحوليات الصليبية تستخدم اسم خراسان استخداما مبهما، بل وأحيانا يطلقون هذا الاسم على البلدان الداخلة تحت سيطرة السلاجقة، وبعضهم يرى أن بغداد هي عاصمة خراسان.

إلى نصيحة الإمبراطور ، فقاد « جفري بورل » جماعة من الفرنسيين رغم معارضة « والتر » المفلس الذي كان يقوم بالقيادة في غيبة بطرس الناسك في القسطنطينية ، وأخذ يغير على الأراضي الزراعية والقرى، ويتوغل في الأراضي التي تحت سيطرة السلاجقة، وفي منتصف سبتمبر أوغل بقواته حتى بلغوا مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان فنهبوا القرى وقتلوا السكان النصارى في وحشية بالغة ، وخرجت من المدينة سرية من الجيش السلجوقي لقتالهم ، إلا أنها عادت بعد قتال عنيف ، وعاد الصليبيون إلى سيفتوت فرحين بما أصابوه من غنائم(٨٣) .

ولم يترك السلاجقة هذه الغزوة من الصليبين تذهب دون عقاب ، وخططوا لاستدراج الصليبيين إلى مواقعهم ، وأرسلوا جاسوسين تركيين أعلنا في المعسكر الصليبي أن الصليبيين جماعة « رينالد » قد استولوا على نيقية وأنهم أخذوا يقتسمون الغنائم ، فازداد الاضطراب في المعسكر ، وطالب الجند السماح لهم بالإسراع إلى نيقية، لأخذ نصيبهم من الغنائم ، وكان السلطان قلج أرسلان قد ملأ الطريق بالكمائن ، وسرعان ماعلم الصليبيون بحقيقة ماحاق بزملائهم من أعوان « رينالد » ، فانقلبت فرحتهم إلى ذعر ، وبدأوا يفكرون في الانتقام لزملائهم ، ورغم أن « والتر المفلس » كان قد نصحهم بالتريث انتظاراً لعودة بطرس من القسطنطينية ومعه الإمدادات ، وكان قد وعدهم أن يعود بعد ثمانية أيام ، إلا أنهم انقسموا على أنفسهم ، وزاد في ذعرهم ماعلموه من توجه السلطان قلج أرسلان إليهم ، وانقسم المعسكر إلى رأيين : رأي يرى الانتظار ، ورأي يرى المبادرة بالهجوم وانتصر أصحاب الرأي الثاني ، حيث تحرك الجيش الصليبي في ٢١ أكتوبر بقوة تزيد عن ٢٥ ألف رجل ، مخلفا في المعسكر الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى(٨٤) .

وعلى مسافة ثلاثة أميال من المعسكر في الطريق المؤدي إلى نيقية في واد زاخر بالغابات ، وعند قرية اسمها « دراكون » وقع الصليبيون – الذين كان يملأ الضجيج

---

(٨٣) **رانسيمان** ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٩٠ .

(٨٤) **وليم الصوري** ، ص١٢٨ ؛ **رانسيمان** ، ج١ ، ص ١٩١ .

والضوضاء تحركهم ، ويسيرون بغير نظام - في كمين نصبه السلاجقة ، فقد انهالت السهام من الغابة فاقتلعت خيولهم وتهاوى الفرسان الذين كانوا فريسة سهلة لسيوف السلاجقة المسلمين ، ودب الذعر في الجيش الذي حاول الفرار وتفرق الجند بحثًا عن ملجأ ، وعاد أكثرهم إلى المعسكر الصليبي وفي أثرهم الفرسان السلاجقة ، وكانت معركة أخرى في المعسكر فتشرد جميع من فيه ، ومن بقى حيًا أخذا أسيرا.

وحلت بالصليبيين هزيمة منكرة وكان من قتل في هذا اليوم بيد السلاجقة من الحشود الصليبية كثيرًا جدًا ، إلى حد أنهم لما جمعوا بقايا الذين قتلوا في مكان واحد ، شكلوا مايماثل مرتفعا كبيرا جدا(٨٥)، وقتل في هذه المعركة أهم قادة الحملة أمثال « والتر المفلس » وغيره ، ونجا المتسبب فيها « جفري بوريل »، وكاد بطرس الناسك أن يكون من ضمن القتلى ، وقد رغب السلاجقة في أسره وأعدوا لذلك عددا من الكمائن إلا أنه استطاع النجاة هو وحفنة من الرجال فقط وتمكنوا من العودة إلى « هلينو بولس »، وكان الإمبراطور قد سمع بما حدث عن طريق أحد البيزنطيين الذي استطاع العثور على سفينة انطلق بها إلى القسطنطينية ليروي ما حدث ، ورأى الإمبراطور أن الأمر سيكون عظيم الوقع ، إذا ما وقع بطرس في الأسر لذلك بادر إلى إرسال قسطنطين يوفوربينوس مع جيش قوي ركب عددا من السفن الحربية لإنقاذ بطرس وأصحابه وكانوا قلة قليلة ، وجلبهم سالمين إلى الإمبراطور(٨٦)، الذي أخذ يلوم بطرس بأنه لم يستجب لنصحه بعدم التحرك أو استثارة السلاجقة الا بعد وصول بقية الحملة ، ولكن بطرس أعلن عدم مسؤوليته عما حدث ، ووضع اللوم على رجاله لأنهم كانوا غير مطيعين له وتبعوا

---

(٨٥) **Anna, Comunnen,** *The Alexiad,* Trans by E.A. Sewter, Second Edition, Penguin Book, London, 1969, P. 296.

(٨٦) يذكر **رانسيمان** أن بطرس لم يكن موجودا في أرض المعركة ، وبالتالي فإن السفن التي أرسلت هي لفك الحصار عن حصن سيفتوت ، وإعادة من تبقى من جيش بطرس ، فيما روايات أخرى تدل **أن** بطرس كان قد عاد إلى الجيش ، وكان هدفا لمحاولة أسره أو قتله من قبل الأتراك. **رانسيمان ،** ج٢ ، ص ١٩٤.
ويذكر **وليم الصوري** أن بطرس قد أخبر وهو في القسطنطينية بما حل برجاله وبهلاكهم واستطاع بتوسلاته وتضرعاته أن يحمل الإمبراطور على أن يرسل بعض القوات إلى هناك . **وليم الصوري ،** مصدر سابق ، ص ١٣٠.

رغبات نفوسهم ، وأنهم كانوا عبارة عن لصوص وأوغاد ورجال عصابات ، فهم غير جديرين بالانتساب إلى حملة الصليب[(٨٧)] .

بهذه النهاية المفجعة للصليبيين انتهت حملة العامة التي أوصلها بطرس الناسك إلى نيقية في آسيا الصغرى.

لقد كانت حملة العامة مثالا للفوضى، وللطمع الذي غلف أهداف الرجال الذين شاركوا فيها ، ورغم ذلك فإننالم نعدم شهادات تدين الإمبراطور الكسيوس كومنين بأنه هو المسؤول عن النهاية المأساوية لحملة العامة ، فقد ذكر ريموندا جيل إنه «عندما وصل بطرس الناسك وحشود المزارعين التي صحبته إلى القسطنطينية قبل شهور من وصول القوة الصليبية الرئيسة ، خانه الكسيوس بأن أجبره وأتباعه الذين لم يكونوا على معرفة بموقع الحرب ولابفنونها ، على عبور المضائق وليس معهم دفاعات ضد الأتراك ، وهكذا فعندما شعر أتراك نيقية بأنهم وقعوا على فريسة سهلة ، قتلوا بسرعة وسهولة ستين ألفا من المزارعين ....»[(٨٨)] .

كما أن المؤرخ المجهول ذكر أن الإمبراطور الكسيوس كومنين لم يكتم فرحته العظيمة حين ذاع خبر تشتيت الترك للصليبيين ، وأنه أصدر أوامره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح يحملونه[(٨٩)] . إلا أن الإمبراطور لم يعدم أيضًا من ينصفه من كتاب الغرب إذ يشير ألبرت دى اكس إلى سفارة الإمبراطور إلى زعماء الصليبية الشعبية وتحذيرهم من الزحف شرقا نحو الأتراك ، غير أنهم لم يعملوا بالنصح ، ويؤكد أن الكارثة التي حلت ببني جلدته كان مردها سوء سلوكهم واختلاف قادتهم في الرأي[(٩٠)] .

والواقع أن الإمبراطور إلكسيوس كومنين سبق أن حذر بطرس الناسك ورجاله مرارا

---

(٨٧) **Anna,** *op.cit.,* p. 313 .

(٨٨) **ريموندا جيل** ، *تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس* ، ترجمه عن الانجليزية حسين محمد عطيه، الطبعة الأولى، الإسكندرية ، ١٩٩٠م ، ص ٧٨.

(٨٩) **المؤرخ المجهول** ، مصدر سابق ، ص ٢٢.

(٩٠) **إسحاق عبيد** ، مرجع سابق ، ص ٩١.

من مغبة مهاجمة الأتراك قبل قدوم الحملة الرئيسة ، ووفر لهم من المؤن مايغنيهم عن القيام بممارسة النهب والسلب والتحرش بالأتراك ، كما أنه لم يقم بنقلهم إلى آسيا الصغرى إلا بعد أن زادت تحرشاتهم بالأهالي ونهبهم لدورهم وقصورهم ومهاجمة أملاكهم حتى إن الكنائس لم تسلم من غاراتهم ، ورغم نقله لهم إلى آسيا الصغرى إلا أنه واصل تحذيراته لهم ، ويعيد وليم الصوري ما حل بالصليبيين إلى « الطيش الجنوني الذي كان عليه هؤلاء القوم الجفاة غير النظاميين ، والمنصرفون عن الأخذ بمشورة من هم أحكم منهم »(٩١) .

والغريب أن بعض المصادر العربية تذكر أن الإمبراطور الكسيوس كومنين قد كتب فعلا إلى المسلمين يخبرهم بظهور الفرنج ، فقد كتب العظيمي في أحداث سنة تسعة وثمانين وأربعمائة مانصه « .... وكتب ملك الروم الكس إلى المسلمين يعلمهم بظهور الفرنج......»(٩٢) . ولعل العظيمي قد استند في كتابته هذه إلى ماكتبه المؤرخ السرياني المجهول حيث كتب «...... وعندما تقدمت جيوش الفرنجة وبدأت تدخل الحدود ، ووصل قسم منهم إلى بعض المعسكرات ، أرسلت شراذم من المشاة والعمال للعبور قبل الجند لكن الكسيوس أنذر الأتراك الذين كانوا في نيقية وما جاورها ، وأخبرهم بقدوم هؤلاء وطلب منهم أن يهاجموهم ، وهكذا أسرع الأتراك إلى ملاقاة هؤلاء على شاطئ البحر وذبحوهم عن بكرة أبيهم دون شفقة أو رحمة ....»(٩٣) .

وإذا كان العظيمي قد استند فعلا إلى المؤرخ السرياني المجهول فليس مستغربا أن يكتب هذا المؤرخ ماكتبه حيث كان السريان والأرمن هم الحلفاء الرئيسون للصليبيين عند قدومهم ، وقدموا لهم خدمات جليلة على أرض الواقع ، فقد عاونوهم في الاستيلاء على المدن بالخيانة(٩٤) . وفي التعرف على الطرقات ، ودلوهم على عورات

---

(٩١) **وليم الصوري** ، مصدر سابق ، ص ١٣٠ .

(٩٢) **تاريخ العظيمي** ، فصل في كتاب الحروب الصليبية : الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كتبت أصلا بالإغريقية والسريانية والعربية واللاتينية ، للدكتور **سهيل زكار** ، ج٢ ، ص ٦٦٣ .

(٩٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٤٥٤ .

(٩٤) كما حدث عندما حاصر الصليبيون أنطاكيه ودخلوها بالتآمر مع فيروز الأرمني.

المسلمين ونقاط الضعف في تحصيناتهم ، وفي كتابة تاريخ حملاتهم على المشرق العربي.

لقد أخفقت حملة العامة التي قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس إخفاقا تاما ، وفي الوقت الذي استفاد الإمبراطور الكسيوس كومنين من مقدم هذه الحملة في تكملة استعداداته لاستقبال الحملات النظامية القادمة ، نجد أن الأتراك السلاجقة ، لم يستفيدوا من مقدم حملة العامة ، فقد خدرهم انتصارهم الساحق عليها ، وجعلهم يعتقدون ان الحملات القادمة -إذا كان هناك حملات أخرى- لن تزيد عما قابلوه من جيش بطرس وعصاباته التي تفتقد إلى النظام ومعرفة فنون الحرب ، لذلك سرعان ما عادوا إلى حروبهم ضد بعضهم في صراع الأمراء العقيم إذ إننا سنجد بعد ذلك أن الحملة النظامية الأولى تصل آسيا الصغرى ، بينما كان قلج أرسلان في حرب مع الدانشمنديين(٩٥) وعندما حاول توحيد الصفوف معهم للتصدي للعدو القادم ، كان الوقت قد مضى ، وسرعان ما اكتسحهم الصليبيون.بلغت أخبار حملة العامة وما انتهت إليه أسماع الغرب الأوربي وبالذات البابوية ولكن ذلك لم يعطل خطواتها لإنفاذ حملاتها النظامية، بل قد يكون سرّع بها.

(٩٥) ينتسب الدانشمديون ، الذين أسسوا دولة تركمانية تسمى الدانشمندية إلى شريف عربي يعرف باسم سيد بطال غازي ، وقد أقاموا دولتهم في ملطية ، وقد مات سيد بطال غازي سنة ١٢٢هـ ، ٧٤٠م في قتال الروم ويذكر مؤرخ بيزنطي أنهم من نسل الاشكانيين ، وقد غزا جدهم الملك دانشمند أحمد غازي آسيا الصغرى متحالفا مع قلج أرسلان الأول السلجوقي وفي ركابه ، وأسس فيها مملكة مستقلة ، حاضرتها سيواس وتضم مدن اماسية وكانكري وجرم ونكسار (قيصرية الجديدة) وغيرها وللمزيد عن الدانشمنديين انظر : **علي بن صالح المحيميد** ، *الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول* ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٤م ، و**دائرة المعارف الإسلامية** ، ج٩ ، ص١٣. و سيد بطال غازي بطل أسطوري ، جاهد في سبيل الله وقبره في سيدي غازي جنوب اسكى شهر ، وبطولته الأسطورية تستند إلى شخصية تاريخية هي شخصية المقاتل الإسلامي عبد الله البطال ، ويذكر **الطبري** (ج ٧ ، ص١٩١) أنه قتل عام ١٢٢هـ (٧٤٠م) في حرب الروم ويذهب المؤرخون إلى أن اسمه الحقيقي هو محمد بن جعفر بن السلطان حسين ربيع بن عباس الهاشمي ، وانه ولد بملطية ، وقد ارتبط تاريخه بقصة شعبية تركية باسم سيد بطال ، وكتبت أحيانا شعرا ، وقد نشرت في طبعات عديدة وترجمت إلى الألمانية، انظر : **دائرة المعارف الإسلامية** ، ج٣ ، ص ٦٧٥.

وبدأت الحملات المنظمة تصل تباعا إلى القسطنطينية بعد عدة حوادث من الاعتداءات على المدن البيزنطية ، وكانت خمسة جيوش مختلفة المشارب والقيادات والولاءات. وباكتمال وصول الجيوش النظامية إلى القسطنطينية وانتقالها إلى آسيا الصغرى التي سبق وأن شهدت تدمير الحملة الشعبية ، تبلور موقف الإمبراطور الكسيوس كومنين تجاه الصليبيين ، وبدأت خطته التي أعدها للتعامل معهم في التكامل.

وفي الواقع فإن السياسة التي اتبعها الإمبراطور مع الصليبيين منذ علم بمقدم حملة العامة وتتابع حملة الفرسان النظامية قد نجحت في تحقيق الهدف الذي سعى إليه ، خاصة وقد كفل لها الإمبراطور جميع عوامل النجاح ، فرغم المآسي التي تعرضت لها الإمبراطورية خلال توافد اللاتين إليها من مختلف أنحاء أوروبا ، إلا أن الإمبراطور استطاع أن يسيس أموره معهم وأن يحصل منهم على يمين الولاء الذي قطعوه له ، والذي تصور الإمبراطور أنه سيكون حاميا له منهم ومحققا لآماله في الحملة(٩٦).

لقد تعددت وسائل الإمبراطور التي اتخذها للسيطرة على الحملة الصليبية فقد نافق البعض ، وهدد آخرين ، وأهدى البعض الآخر هدايا ثمينة ، وبذل وعوده بتقديم المساعدات الحربية والمعيشية لتموين الجيوش.

وتحقق للإمبراطور ماكان يهدف إليه بربط قادة الحملة بنظام الإقطاع الذي كان سائدا في أوروبا آنذاك ، واتخذ الإمبراطور خطوته لمعرفته بذلك النظام وقوانينه التي تحدد العلاقة بين التابع والمتبوع والأرض.

لقد استعان الإمبراطور الكسيوس بالصبر الذي اقترن بالحزم والدهاء ليحمي عاصمته وملكه أولا من همجية هؤلاء القوم ، ولتتيسر له الاستفادة منهم فيما بعد في استعادة الأراضي التي كانت تحكمها الإمبراطورية سابقا.

وبالرغم من تضارب المصالح واختلاف الأهداف والأطماع فإنه كان لامفر من الاتفاق بين الإمبراطور وهؤلاء اللاتين ، فزعماء الصليبيين بدورهم شعروا بأنه لابد من

---

(٩٦) **Anna,** *op.cit.*, p. 343 .

الحصول على تأييد الإمبراطورية البيزنطية ومدها لهم بالمؤن والدعم حتى يستطيعوا أن يحققوا الهدف الذي أعلنوا أنهم جاءوا من أجله[٩٧] . وبيزنطة رأت أن من مصلحتها استخدام هذه الجيوش فيما يحقق لها أهدافها السياسية في استعادة الأراضي التي سبق أن فتحها السلاجقة منذ عهد قريب.

إلا أن الملاحظ أن الإمبراطور قد اكتفى بيمين الولاء الذي حصل عليه من قادة الحملة من الأمراء الصليبيين منفصلين ، ولم يحاول تطوير هذا اليمين إلى اتفاقية محكمة تحكم العلاقة بين الطرفين بشكل محدد وتضع حدا لكثير من المشاكل التي ثارت فيما بعد.

والكثير من المؤرخين- وبالذات المراجع الحديثة- ترى أن هذا اليمين يرقى إلى ما يمكن أن يكون معاهدة أو اتفاقية سميت باتفاقية القسطنطينية إلا أن تصرف الإمبراطور وتجاهله لهذا الأمر لايزال محل استغراب ، خاصة أنه يعلم أطماع بعض هؤلاء القادة وتقلباتهم ، ولم تكن حقيقة نواياهم خافية عليه ، إلى جانب أن الكثيرين منهم طارئون في التعامل مع الإمبراطورية البيزنطية.

لقد وضع الإمبراطور بعدم اهتمامه بتطوير هذا الاتفاق الذي تم مع القادة الصليبيين إلى اتفاقية أو معاهدة محكمة أو محددة المعالم بذرة للخلاف الذي مالبث أن استشرى بعد فترة وجيزة بين الطرفين ، والذي كان له أثره في توتير العلاقة بينهما.

وربما أن أمرًا كهذا لم يغب عن بال الإمبراطور، ولكنه وجد أن مناقشته ستكون لها مضاعفاتها الشديدة على الإمبراطورية خاصة أن جيوش الصليبيين مازالت تعسكر بجوار القسطنطينية وأن أكبر هم للإمبراطور في تلك المرحلة هو أن يبعد خطرهم عن عاصمته ، ثم إن أطماعه التي رأى انه يستطيع تحقيقها عن طريق الحملة لم تكن محددة ، فعلى أي الأراضي يستطيع أن يستولي ، وإلى أي مدينة تستطيع الحملة أن تصل؟! وربما أن مناقشة أمر كهذا قد يعطل عليه بعض أطماعه أو يحول دون تحقيقها.

---

(٩٧) **فوشيه الشارتري**، *تاريخ الحملة إلى القدس*، ترجمة : زياد العسلي ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٠م ، ص ٤٥.

وهكذا وجد الإمبراطور نفسه راضيًا وهو يوقع في مايو ١٠٩٧م / ٤٩١هـ في القسطنطينية اتفاقا مع الزعماء الفرنج(٩٨).

ونص هذا الاتفاق الذي نظر إليه المؤرخون على أنه اتفاقية، على تعهد الصليبيين بأن يعيدوا إلى سلطة الإمبراطورية البيزنطية الأراضي والأقاليم التي كانت تحت حكمها فيما مضى، وذلك بعد تخليصها من السلاجقة، وأنهم بقسمهم يمين التبعية والإخلاص للإمبراطور يصبحون من أتباعه وجندا في خدمته، ومن جانبه تعهد الإمبراطور بمساعدتهم والمحافظة على سلامتهم خلال مرورهم عبر أراضي الإمبراطورية، وأن يسهل لهم مسألة التموين، وأن يضع فرقة من الجيش البيزنطي تحت تصرف زعماء الحملة تعينهم وتدلهم على الطريق(٩٩). وكان هذا هو محتوى القسم الذي سبق أن تلاه جميع القادة الصليبيين في أعقاب اتفاقهم مع الإمبراطور الكسيوس كومنين.

وهناك من المؤرخين من يرى أن الإمبراطور قد تعهد أيضا بالاشتراك في الحملة و أن يكون على رأس الجيش المتجه صوب بيت المقدس(١٠٠).

ورغم ذلك فقد جاءت مشاركة الإمبراطور في الحملة ضئيلة ومحدودة جدا، وذلك يستدعي سؤالا آخر: لماذا كانت مشاركته بهذا القدر مع أن عداء الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطور نفسه للمسلمين لايقل بأي حال من الأحوال عن عداء الصليبيين،

---

(٩٨) **أسد رستم**، *الروم في سياستهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب*، المكتبة البولسية، ج٢، ص ١٢٩، بيروت ١٩٨٨م.

(٩٩) كان أول المرافقين للحملة هو القائد البيزنطي تاتكيوس، وقد وصفه **وليم الصوري**، بإنه كان لئيم الطبع غدارا، يدل أنفه الأفطس على ما انطوت عليه نفسه من السوء، **وليم الصوري**، مصدر سابق، ص١٩١.

(١٠٠) **Chalandon,** Alexis, P. 188 نقلا عن **جوزيف نسيم يوسف**، *العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى*، مرجع سابق، ص, ٢٢٣ ويصح أن يكون ذلك صحيحا ولكن ليس في بداية تحرك الحملة، فقد سبق أن اعتذر الإمبراطور عن قيادة الحملة بنفسه وإنما يصح أن يشارك الإمبراطور بنفسه عندما تحقق نوعا من التقدم في بلاد الشام، وذلك لأنه كان - على مايبدو - يطمع في منافسة الصليبيين الكاثوليك في فرض هيمنه الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية على كنائس بيت المقدس، وخاصة كنيسة القيامة التي يدعي البيزنطيون أنها من إنشاء القديسة هيلانه والدة الإمبراطور قسطنطين الأول.

وأطماعه هي نفس أطماعهم؟!. فهل كان ذلك لأن الإمبراطور بعد وصول الصليبين وتلمسه لحقيقتهم تراكمت لديه من الأسباب ماجعلته يتراجع عن الدفع بكل قواته لدعم الحملة؟!. ام أنه أراد أن يعطي نفسه وقواته فرصة التأمل ومراجعة الموقف وفق توالي الأحداث والنتائج؟!. أم أن الإمبراطور وجد في الصليبيين أعداء جددا لايقلون في عدائهم للإمبراطورية عن السلاجقة ففضل أن يتمهل في بلورة موقفه والمشاركة بحجم ضئيل من القوات انتظارا لما يسفر عنه الصدام بين السلاجقة والصليبيين ، لعل كل ذلك كان وراء محدودية المشاركة البيزنطية بالفرقة الصغيرة التي قادها تاتيكوس ضمن القوات الصليبية التي انطلقت إلى الشرق ، هدف منها الإمبراطور أولا المحافظة على صورته في العالم النصراني ، وثانيا -كما تروج المصادر الغربية- مراقبة الحملة وقادتها وبعث تقارير عنها إليه[١٠١].

وربما بتأثير من السببين وهما عدم تطوير يمين الولاء إلى اتفاقية ومحدودية المشاركة البيزنطية في الحملة ماتلبث المشاكل أن تثور بين الكسيوس كومنين وزعماء الحملة الصليبية الأولى.

وتوقف المؤرخون طويلا عند نقطة "تلك الأراضي التي كانت تحكمها الإمبراطورية البيزنطية في السابق" فهل يقصد بها تلك الأراضي التي كانت تدخل في نطاق الإمبراطورية البيزنطية في أوائل القرن الحادي عشر ، أي قبل موقعة ملاذكرد (١٠٧١م / ٤٦٣هـ) وعلى وجه التحديد أيام باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م) أم أنها أيضا المقاطعات القديمة للإمبراطورية الرومانية منذ عهد هرقل (٦١٠-٦٤١م) او جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)[١٠٢]، وفي هذه الحالة تصبح بيت المقدس داخلة في هذه المطالبات.

ونعتقد أن الإمبراطور الكسيوس كومنين وهو يوقع هذا الاتفاق مع الصليبيين لم يكن يفكر في ذلك ، إن اهتمامه ومطالباته فضلا عن جهوده انصبت على استرجاع مناطق آسيا الصغرى التي فتحها السلاجقة في الفترة القريبة التي سبقت توليه العرش.

---

(١٠١) **المؤرخ المجهول** ، ص ٢٢.

(١٠٢) **جوزيف نسيم يوسف** ، *العرب والروم واللاتين* ، مرجع سابق ، ص ٢٢٤.

وفي الحقيقة ، وحسب منطق الاتفاق ، فإنه لا الإمبراطور كان حرا في تسيير الحملة ، ولا الصليبيون كانوا سادة أنفسهم في التحكم في سيرها - على الأقل في بدايتها- فلو كان الإمبراطور يملك توجيه الحملة لتحقيق مصالحه وحسب لكان قد استخدمها في إجلاء السلاجقة عن آسيا الصغرى وهي منطقة حيوية بالنسبة للإمبراطورية وتأتي في المرتبة الأولى من اهتمامها والقرب منها ، وهي الدافع الأول لطلب الفرق المرتزقة من الغرب.

وكذلك فإن الصليبيين لو لم يرتبطوا بذلك الاتفاق مع الإمبراطور ، لاتجهوا رأسا إلى قليقيه عبر آسيا الصغرى ، ولكانت أنطاكيه وليست بلدان آسيا الصغرى ، هي أول أهدافهم ، إلا أن تشابك المصالح وربما تكاملها في المرحلة الأولى من الحملة هو الذي أوجد ماسمى باتفاقية القسطنطينية وجعلها مبدأ مقبولا للتعاون بين الطرفين المتنافرين ، والذين تجمعهما عداوات وخلافات لاحصر لها سياسية ومذهبية ، أكدت الأعمال التي أتاها الصليبيون وهم في طريقهم إلى القسطنطينية بروزها على أرض الواقع رغم المحاولات الكثيرة التي بذلت لتجاوزها ورغم الإدعاءات التي صورت الحملات الصليبية بأن هدفها الأول هو دعم نصارى الغرب لنصارى المشرق ، فلولا ذلك التنافر والخلاف لما ارتكبت تلك المجازر ، ولولاها أيضا لما بلغت أعداد المحتشدين في آسيا الصغرى عدة مئات من الآلاف فقط[١٠٣] ، في الوقت الذي يقدر مؤرخون غربيون آخرون - في مبالغة سافرة - الخارجين من الغرب استجابة لدعوة البابا أوربان الثاني بأكثر من ستة ملايين محارب لكن قتل الكثيرون منهم ، ومنهم من عاد بعد أن قدر مشاق الطريق[١٠٤] .

---

(١٠٣) يقدر **وليم الصوري** عدد الذين احتشدوا في آسيا الصغرى « بتسعمائة ألف شخص ذكر وأنثى مشاة لاظهر عندهم ، أما الفرسان من أصحاب الدروع فكانوا مائة ألف...... » **وليم الصوري** ، مصدر سابق ، ص ١٩٢ .

(١٠٤) **فوشيه** ، مصدر سابق ، ص٤٦ ، مع الأخذ في الاعتبار المبالغات التي تعود عليها مؤرخو العصور الوسطى من ذكر أرقام الجيوش وعدد المحاربين والأسرى ، فإن مرجعا حديثا ومؤلفا هو الدكتور **سهيل زكار** يذكر في مقدمة تحقيقه لكتاب « الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين » والذي يعتقد أن مؤلفه هو أحمد بن علي الحريري ، من مؤلفي القرن العاشر للهجرة يذكر في مقدمته =

على أي حال اكتمل توافد الصليبيين في آسيا الصغرى ، وتجمعت القوات على الشاطئ الآسيوي قرب سميرنا (أزمير الحالية) ، بعد أن تم الاتفاق على استخلاص طرق آسيا الصغرى التي توصلهم إلى بيت المقدس من أيدي السلاجقة ، ورافقت الجموع الزاحفة الفرقة البيزنطية بقيادة « تاتيكوس » ولكن نظرا لضخامة الجيوش وكثرة أعدادها ومراعاة لمسألة التموين فقد انقسم الجيش إلى قسمين :قسم زحف عبر بثينيا ونيقوميديا نحو نيقية والقسم الآخر عبر المضيق إلى سفيتوت.

وكان الإمبراطور الذي انتقل إلى بليكانوم[١٠٥]، واتخذها قاعدة له ليكون على مقربة من الحملة قد زار الصليبيين وزودهم بالنصائح عن طرق محاربة الأتراك[١٠٦].

= الطويله مانصه : « عبرت هذه الحشود التي قيل بأنها فاقت المليون إنسان من أوروبا إلى آسيا الصغرى تريد الوصول إلى بيت المقدس » انظر: **سهيل زكار** ، مقدمه تحقيق كتاب « الإعلام والتبيين » دمشق مكتبة دار الملاح ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ص ٢٧، ٣٥، والمراجع الحديثة - العربية والأجنبية - تذهب إلى أرقام أقل من ذلك كثيرا وقد أورد المؤرخ ستيفن رانسيمان ملحقا في ختام الجزء الأول من كتابه عن تاريخ الحروب الصليبية : « الملحق الثاني ، ص٤٨٩، ٤٨١ » خصصه لمناقشة مختلف الآراء التي ذكرت عن عدد قوات الجيوش التي شاركت في الحملة ، وعن العدد الإجمالي للحملة ، وهو يذهب به إلى ما يتراوح بين ٤٢٠٠- ٤٥٠٠ فارس و٣٠٠٠٠ من الرجالة (المشاة فقط) فقط ، ولكن لم يذكر رانسيمان إذا كان هذا العدد هو مايعتقد أنه قد احتشد في آسيا الصغرى أم ذلك الذي كان يحاصر أنطاكيه ، أم ذلك الذي كان يحاصر بيت المقدس ، فلا شك أن الصليبيين رغم تقدمهم في أراضي آسيا الصغرى وبلاد الشام حتى وصولهم إلى بيت المقدس قد تعرضوا لكثير من ضربات السلاجقة وهجماتهم مما أفقدهم الكثير من رجالهم ، كما أن الكثير من المخاطر التي تعرضوا لها في الطريق قد جاءت على عدد لايستهان به من قواتهم ولعل هناك هدفا من خفض العدد إلى ذلك الرقم حتى يبدوا أنهم حققوا انتصارا سهلا على القوات الإسلامية رغم قله عددهم وبعيدا عن مبالغات مؤرخي العصور الوسطى وأهداف المؤرخون المحدثين يبدوا أن الرقم الذي ذكره « ريموندا جيل » ص (٨٦) وهو مائة ألف مقاتل أقرب إلى الواقع خاصة إذا أخذنا في الاعتبار مسألة التموين وأحوال المدن التي يمر بها هذا الجيش وإمكانيات أوروبا في العصور الوسطى في توفير هذه الأعداد وهي التي كانت تشكو ضآلة في عدد السكان.كما أن « **أرنست باركر** » ، ص (٢٧) يرى أن الجيش الصليبي قارب ١٥ ألفا من الرجال الأشداء.

(١٠٥) هناك خلاف بين المؤرخين على تحديد موقع بليكانوم ، فبعضهم يرى أنها على بعد ١٦ ميل غربي نيقوميديا ، ويرى آخرون أنها شديدة القرب من خلقيدونية ، إلا أن المؤكد أنها كانت في موقع يكفل لها الاتصال المستمر بالقسطنطينية ، انظر رانسيمان ، ج١ ، ص ٢١٩.

(١٠٦) **Anna,** *op.cit.*, p. 346 .

وكان هدف الجيش الصليبي البيزنطي المشترك الاستيلاء على نيقية[١٠٧]، عاصمة سلاجقة الروم وعاصمة إقليم بثينيا، والتي يجتازها الطريق الحربي البيزنطي القديم.

اختار الصليبيون توقيت مناسبًا لحصار نيقية، فقد كان السلطان السلجوقي قلج أرسلان غائبا وقتذاك ، حيث كان في الحدود الشرقية لدولته ينازع الأمراء الدانشمنديين السيادة على ملطية، والواقع أن السلطان السلجوقي كان قد أغراه الانتصار السريع الذي حققه على جماعة بطرس الناسك، واعتقد أن أي جموع صليبية جديدة ستصل بلاده لن يتعدى مستواها أو خبرتها الحملة السابقة، كما أن جواسيسه وعيونه في العاصمة البيزنطية قد قدموا له معلومات مضللة، وصوروا له الخلاف الذي كان قائما بين الإمبراطور وقادة الحملة الصليبية تصويرا مبالغا فيه[١٠٨]، مما جعله يطمئن على أوضاع عاصمته وقدرتها على صد أي هجوم، حتى إنه خلف فيها زوجته وأولاده وأمواله.

أخذ الصليبيون في حصار نيقية من مختلف جهاتها ابتداء من يوم ١٤ مايو ١٠٩٧م (٨ جمادى الثانية ٤٩١هـ) ماعدا الجهة الجنوبية حيث إنها أعدت ليقوم بحصارها جيش ريموند الصنجيلي، وكذلك الجزء الذي يطل على بحيرة أسكانيوس، ولم تستطع حامية المدينة الكبيرة التي تركها قلج أرسلان لحمايتها التصدي للمهاجمين فتحصنوا داخل أسوارها.

وأرسلت زوجة قلج أرسلان التي كانت تدير الأمور في المدينة الرسل إلى زوجها

---

(١٠٧) نيقية تسمى الآن أزنيق على مقربة من القسطنطينية وبنيت في عهد الإمبراطور انتخونوس ANTIGO-NUS حوالي عام ٣١٦ق.م، وعقد بها أول مجمع ديني في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول، حيث ظهرت مشكلة الاريوسية ،كما عقد بها مجمع ديني سنة ٧٨٧م عرف بالسابع في عهد الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م) ابن الإمبراطورة إيرين حينما ظهرت مشكلة الأيقونية مجددا، وتقع المدينة على شاطئ بحيرة أسكانيوس ASCANIUS في آسيا الصغرى، وتقع في الإقليم السهلي وتتمتع بموقع رائع وتشرف عليها الجبال التي تحيطها من كل النواحي، وهي منطقة خصبة وبها غابات وأحراش كثيرة، وتتمتع بحصانة كبيرة، وأبراج مرتفعة . انظر: **وليم الصوري**، مصدر سابق، ج١، ص ص: ١٩٩- ٢٠٠.

(١٠٨) **رانسيمان**، مرجع سابق، ج١، ص ٢٥١.

ليسارع لإنقاذ عاصمته ، وأشارت عليه أن يدخل من الناحية الجنوبية لأنها كانت خالية من المحاصرين ، ولكن ريموند الصنجيلي مالبث أن وصل يوم ١٦ مايو فاكتمل حصار المدينة[١٠٩].

ولم تصل أول قوة سلجوقية لنجدة نيقية إلا بعد وصول ريموند الصنجيلي حيث اشتبك معها في قتال عطل فيه دخولها إلى نيقية ، وقتل منهم الكثير قبل أن يستطيع الناجون منهم الانسحاب إلى الجبال[١١٠].

شدد الصليبيون الحصار على مدينة نيقية وبدأوا يستعملون أدوات هدم الأبراج من الكباش والدبابات[١١١]. ولكن هذه الوسائل لم تكن فعالة بسبب شدة تحصين المدينة كما شعر الصليبيون أن هناك منفذاً مازال مفتوحًا أمام المدينة وتصل عبره رسل السلطان قلج أرسلان إلى المحاصرين داخلها حتى إن الصليبيين استطاعوا أسر أحد هؤلاء الرسل وحصلوا منه على معلومات هامة عن خطط السلطان لمهاجمة المدينة وساعة الهجوم[١١٢].

وبدأ الإمبراطور يتحرك ، وكان السلاجقة قد بعثوا إليه يطلبون منه حمايته من المهاجمين للمدينة ، فأعطى الإمبراطور تعليماته إلى قائده مانويل بوتوميتس BUTU-MITES للتفاوض مع المحاصرين ، والذي نفذ إلى المدينة ليجري المفاوضات مع قادتها،

---

(١٠٩) **المؤرخ المجهول** ، مصدر سابق ، ص ٣٤.

(١١٠) **ريموندا جيل** ، مصدر سابق ، ص ٧٧.

(١١١) الدبابة ، آلة تصنع من الخشب يدخل فيها المقاتلون ، وغالبا النقابون الذين يقومون بالاقتراب من الأسوار بقصد الاحتماء بها ، كما أنها تستخدم سترة للرجال الذين يقومون بجر المنجنيق وما شاكله من أن يرمون بالحجارة وسميت دبابة لأنها تدفع فتدب ، ويذكر المؤرخون اللاتين أن جنودهم هم الذين صنعوا هذه الأسلحة ، بينما يذكر البيزنطيون أن الإمبراطور قد زودهم بها ، انظر: **المؤرخ المجهول** ، ص٣٣ ، هامش رقم (٤) ، ويذكر **وليم الصوري** (ص٢١٥) أن رجلا لمبارديا هو الذي فكر في صنع هذه الآلة ونفذها أمام أسوار نيقية بعد أن جاءوا له بالمواد اللازمة وأنه قادها بنفسه مع جماعة من الرجال حتى حاذوا بها أسوار المدينة ، وتغلبت على قذائف السلاجقة من فوق الأسوار وأنهم استطاعوا بواسطتها تهديم أحد الأبراج.

(١١٢) **وليم الصوري**، مصدر سابق ، ص ٢٠٣.

ولكن هذه المفاوضات مالبثت أن توقفت بعد أن وصلت الأنباء إلى نيقية أن السلطان قلج أرسلان في طريقه لفك الحصار بقوات ضخمة[١١٣].

واشتد الحصار واستمر سبعة أسابيع وثلاثة أيام[١١٤] وفي ٢١ مايو أقبل السلطان قلج أرسلان بجيشه من جهة الجنوب - كما سبق أن نصح - فبادر بمهاجمة الصليبيين، وتحمل ريموند الذي كان يحاصر الناحية الجنوبية الضربة، ولم يستطع بوهيموند وجودفروي أن يخليا مواقعهما لمساعدته، وقام بمساعدته روبرت كونت الفلاندرز حيث دارت معركة عنيفة استمرت يوما بأكمله، ومع ذلك لم يستطع السلاجقة أن يشقوا لهم طريقا إلى داخل المدينة، وأمام ضخامة الجيش الصليبي وعجز قلج أرسلان عن اختراقه، قرر الانسحاب، وبدأ يتفاوض سراً مع السلطات البيزنطية لإنقاذ المدينة[١١٥]. لم تستطع زوجة قلج أرسلان وقادته المحاصرين داخل المدينة أن يتحملوا شدة الحصار، وانهارت مقاومتهم عندما شاهدوا سقوط أحد الأبراج، فأمرت زوجة قلج أرسلان بإعداد السفن للهرب، ولما كان الصليبيون قد استطاعوا أيضا السيطرة على الطريق البحري بعد أن قدم لهم الإمبراطور إمداد بحريا تحت قيادة بوتوميتس الذي استطاع السيطرة على بحيرة أسكانيوس ألقى البيزنطييون القبض على زوجة قلج أرسلان وولديها ووضعوهم تحت حراسة مشددة[١١٦]. وكان السلطان قلج أرسلان عند انسحابه قد استطاع أن يبعث برسالة إلى المدينة المحاصره وأخطر حاميتها بأن تقوم بأحسن ماتظنه من التصرف إذ ليس بإمكانه أن يمد لها يد المساعدة.

وجدت الحامية السلجوقية في نيقية أن أفضل ما أمامها، وقد بدأت بعض تحصيناتها بالانهيار، وعجز السلطان عن أن يفك حصارها، أن تعود إلى ماسبق أن عرضه الإمبراطور بتسليم المدينة إليه، خاصة أنه كان مايزال يضغط في هذا الجانب، لأنه يريد

---

(١١٣) **رانسيمان**، ج١، ص ٢٥٣.

(١١٤) هكذا يذكر المؤرخ المجهول أي أن الحصار ابتدأ من ٦ يونيو، فيما **يذكر ريموندا جيل** أن الحصار استمر خمسة أسابيع ص (٧٨).

(١١٥) **Anna,** *op.cit.,* P. 356.

(١١٦) **وليم الصوري**، مصدر سابق، ص ٢١٦.

أن يتسلم نيقية خالية من التخريب ، كما أنه يريد أن يستحوذ عليها ويجنبها نهب الفرنج لها خاصة أنها كانت مدينة أثيرة لدى الإمبراطورية ، وأغلبية سكانها من المسيحيين فكان يريد تجنيبهم فوضى الاستيلاء الصليبي عليها. فبدأ الاتصال مرة أخرى بين الحامية السلجوقية وبين بوتوميتس الذي كان يسيطر بأسطوله على البحيرة التي تطل عليها المدينة ، والذي أقنعهم بالاستسلام للإمبراطور ، وأن بإمكانهم الاعتماد على حسن معاملته لهم ، وأنه إذا كان لامفر من استسلام المدينة ، فإن من الأفضل أن تستسلم للإمبراطور عن هؤلاء القوم المجهولين(١١٧).

وبينما كانت هذه المحادثات تجري بين موفد الإمبراطور والسلاجقة كان القادة الصليبيون يعقدون اجتماعا للتشاور ، قرروا فيه القيام بهجوم شامل على المدينة ، وقد تحدد يوم ١٩ يونيه(١١٨) للقيام به ولكنهم فوجئوا أن شاهدوا صبيحة ذلك اليوم الرايات البيزنطية فوق أبراج المدينة ، إذ إن السلاجقة استسلموا مساء ذلك اليوم ودخلت القوات الإمبراطورية ومعظمها من البجناك عبر البحيرة إلى المدينة.

وصلت أنباء هذا الانتصار إلى الغرب ، حيث جرى إنفاذ الرسل إلى هناك تعلن أن الموضع المبجل قد عاد نصرانيا مرة أخرى ، وتلقى أهل الغرب الأنباء بحماس شديد حتى أن المدن الإيطالية والتي ظلت حتى ذلك الحين شديدة الحذر والتمهل في المشاركة في الحملات الصليبية اشتد اهتمامها وحرصها على المشاركة فيها(١١٩).

على أي حال أثمرت الجولة الأولى للصليبيين عن إعادة نيقية إلى حكم الإمبراطورية البيزنطية ، بعد أن استمرت تحت حكم السلاجقة ستة عشر عاما ، وتنفست القسطنطينية الصعداء باستعادتها لهذا الحصن الهام الذي شكل فقدانه خسارة كبيرة للإمبراطورية وتهديدا دائما لها ، كما أن استعادتها أعطت الإمبراطور الفرصة

---

(١١٧) المصدر السابق ، ص ٢١٧.

(١١٨) هذا مايذكره **رانسيمان** (ج١ ، ص٢٥٥) بينما يذكر **فوشيه الشارتري** و **وليم الصوري** أن ذلك تم يوم٢٠ مايو ، بينما تذكر الحاشية رقم (٢) في صفحة (٣٧) من **المؤرخ المجهول** أن ذلك تم يوم ٢٦ يونيو ، ومعظم المراجع تذكر أن سقوط نيقية تم يوم ١٩ يونيو ١٠٩٧.

(١١٩) **رانسيمان** ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٥٩.

لإرسال قواته لاستعادة بقية أجزاء آسيا الصغرى التي مازالت في يد الأتراك والتي كونوا فيها إمارات مستقلة ومتنازعة.

وحدت الهزيمة التي تعرض لها قلج أرسلان بينه وبين الدانشمنديين فاتحد معهم وأصبحوا يؤلفون قوة حربية شديدة البأس في وسط آسيا الصغرى وشرقيها، على أن الإمبراطور استهدف في المرحلة التالية وعقب الاستيلاء على نيقية وإصلاح تحصيناتها، استرجاع الشطر الغربي من آسيا الصغرى، حيث يستطيع بفضل قواته البحرية النامية أن يمهد الطريق نحو الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى لذلك أنفد صهره القيصر يوحنا دوكاس يسانده أسطول بحري بقيادة كاسباس الذي عين قائدا للأسطول البيزنطي للاستيلاء على ساحل إيونيا وفريجيا، وكان هدف الحملة سميرنا (أزمير الحالة) التي كان يحكمها تزاخاس(١٢٠)، وما حدث من الهجوم براً وبحراً جعل حاكم سميرنا يبادر إلى الإذعان وتسليم إمارته في مقابل الانسحاب إلى الشرق، وأوغل الجيش البيزنطي في المسير إلى داخل آسيا الصغرى، حتى إن أفسوس سقطت بعد قتال لم يستمر يوما كاملا(١٢١) واستمر الجيش يستولي على أهم مدن ليديا الواحدة بعد الأخرى، ولم ينقض خريف ١٠٩٧م / ٤٩١هـ حتى صار كل الإقليم في يده(١٢٢)، ثم بدأ يستعد للزحف على فريجيا بهدف الوصول إلى الطريق الرئيسي الذي كان قد سلكه الصليبيون.

فتح الاستيلاء على نيقية أمام الدولة البيزنطية الفرصة لاستعادة الأناضول وآسيا الصغرى، مما شكل أهمية كبيرة واستثماراً جيدا أقدمت عليه الإمبراطورية بعد الانتصار في نيقية وتتضح هذه الأهمية عند المقارنة بين ماكانت عليه خريطة الشرق الأدنى سنة ١٠٩٥م وبين ماصارت عليه في مطلع سنة ١٠٩٨م/ ٤٩١هـ، ففي الأولى كانت الحدود التركية البيزنطية تقوم عند مدينتي نيقية ونيقوميديا أي على مسافة قصيرة من

---

(١٢٠) **رانسيمان**، ج١، ص ٢٧٥.

(١٢١) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(١٢٢) **Anna,** *op.cit.*, p. 376.

بحر مرمره والبسفور ، في حين آلت أزمير وافسوس إلى الأمراء الأتراك أما في الثانية فكان قد تم إخراج السلاجقة من بثينيا وايونيا وفريجيا(١٢٣) ومن ثم عادت هذه الأقاليم إلى الحياة البيزنطية(١٢٤).

بعد أسبوع من الاستيلاء على نيقية بدأ الصليبيون يتجهزون للمغادرة ومتابعة سيرهم إلى أنطاكية ففي ٢٦ يونيو ١٠٩٧م ، أخذت مقدمة الجيش الصليبي في التحرك(١٢٥)، بعد أن ودع القادة الصليبيون الإمبراطور وتزودوا بنصائحه ، وتحركت معهم الفرقة البيزنطية بقيادة تاتيكوس - الذي كان خبيرا بالطريق - لتقودهم في مجاهل آسيا الصغرى.

بعد يومين سار بقية الجيش يتبع مقدمته البيزنطية ، واجتمع الجيش الصليبي عند جسر جسكور(١٢٦) على النهر الأزرق ، عند بلدة لويكي LEUCE حيث عقد الصليبيون مؤتمرًا تقرر فيه تقسيم الجيش إلى فرقتين لتسهيل عملية التموين(١٢٧)، وتقرر أن يكون الفاصل بين الفرقتين مسيرة يومين(١٢٨). وتكون الجيش الأول من نورمان جنوب إيطاليا وشمال فرنسا وعسكر كونت الفلاندرز وستيفن كونت بلوا ، فضلا عن الأدلاء البيزنطيين ويقود هذه المجموعة بوهيموند وتكون الجيش الثاني من عسكر جنوب فرنسا

---

(١٢٣) أهم أقاليم آسيا الصغرى.

(١٢٤) **عاشور**، *الحركة الصليبية* ، ج١ ، ص ١٧١.

(١٢٥) هكذا يحدد **رانسيمان** ، *تاريخ الانطلاق من نيقية* ، ج١ ، ص٢٦٠ ، فيما يذكر **فوشيه الشارتري** أن التحرك بدأ يوم الثالث قبل بدء شهر يوليو ، ص (٤٧) ، ويذكر **وليم الصوري** أن التحرك بدأ يوم ١٩ يونيو ، ص (٢٢٢). بينما يغفل ريموندا جيل أمثال هذه التواريخ.

(١٢٦) **المؤرخ المجهول** ، مصدر سابق ، ص ٣٨.

(١٢٧) اعتقد **ريموندا جيل** أن بوهيموند وبعض الأمراء تصرفوا تصرفا غير حكيم ، عندما انفصلوا عن الكونت ريموند والأسقف ادهيمار والدوق جودفروي ، ويعلل مترجم كتابه إيراده لهذه العبارة بأنه لم تسمح له مرتبته بحضور مجالس أمراء الحملة وبالتالي لم يعلم أن الأمراء قد عقدوا اجتماعا اتفقوا فيه على تقسيم الجيش إلى قسمين لحل مسألة التموين والتحرك الضخم ، انظر هوامش الفصل الثالث حاشية رقم (٧) ، ص٨٣ من كتاب **ريموندا جيل**.

(١٢٨) **المؤرخ المجهول** ، ص٣٨ ، بينما يذكر **رانسيمان** أن الفاصل يوم واحد ، ج١ ، ص٢٦١ ويؤيده **وليم الصوري** حيث يذكر أن الجيش الثاني تحرك بعد مسيرة يوم ، ص (٢٢٢).

واللورين وعساكر كونت هيوج فرماندوا ويتولى قيادة هذه المجموعة الكونت ريموند الصنجيلي.

وما إن تم تقسيم الجيش حتى أخذ بوهيموند طريقه إلى ضورليوم، واتجه الجيش الثاني على نفس الطريق ولكن إلى ناحية أخرى بحيث لايفصلهم سوى ميلين حيث توفر لهم المرعى الطيب والماء الغزير.

لم ييأس السلطان قلج أرسلان لما أصابه في نيقية، وزاده تصميما فشله في استعادتها أن يعيد الكرة مرة أخرى، فكان أن اتجه إلى الشرق وعقد اتفاقا مع الأمراء الدانشمنديين لمواجهة الخطر الجديد الذي لم يكن يتوقعه أحد من أمراء آسيا الصغرى من الأتراك. وبدأ قلج أرسلان يبعث عيونه وجواسيسه لتتبع أثر الفرنج ومسيرتهم فعلم أنهم سيمرون بوادي ضورليوم فكمن لهم هناك[(١٢٩)].

وفاجأ السلطان قلج أرسلان بوهيموند بجيش كبير[(١٣٠)] انطلق من الجبال، وهم يهللون ويكبرون[(١٣١)]، وتجمع الصليبيون من غير المقاتلين في وسط المعسكر حيث ينابيع المياه، وبعث بوهيموند إلى الجيش الثاني برسول ليسارع إلى نجدته، كما عقد اجتماعا سريعا مع قادته حثهم فيه على الاستعداد لخوض قتال عنيف وأن يلتزموا أول الأمر خطة دفاعية. أحاط الترك من كل جانب بالصليبيين، وأثخن بوهيموند بالجراح، واشتد التضييق على الصليبيين، ولم يكن أمامهم سوى الاستسلام، وزادت حرارة الجو في يوليه من مصاعبهم، واستولت الدهشة على الصليبيين من قوة قتال الترك، ومن مقدرة السلطان قلج أرسلان على جمع هذا العدد من المقاتلين[(١٣٢)]، ولم ينقذ

---

(١٢٩) **وليم الصوري**، مصدر سابق، ص ٢٢٣.

(١٣٠) يقدره **وليم الصوري**، ص(٢٢٤) بأنه جاوز مائتي ألف مقاتل سوى الخيالة ويقدره **ريموندا جيل** ص(٧٩) بمائة وخمسين ألف مقاتل، و**فوشيه** يذهب بعيدا في المبالغة فيقدره بـ ٣٦٠٠٠٠ مقاتل، ص (٤٨) وكذلك **المؤرخ المجهول**، ص (٤٠).

(١٣١) يذكر **رانسيمان** أن ذلك تم في يوم ٢٠ يونيه، وهذا خطأ إذ كيف يكون الجيش قد غادر نيقية يوم ٢٦ يونيو ثم تكون المعركة القادمة مع قلج أرسلان يوم ٢٠ يونيو ؟!، ومعظم المصادر والمراجع تذكر أن ذلك كان يوم ١ يوليو انظر **وليم الصوري**، ص٢٢٣، و**المؤرخ المجهول** ص (٤٢) ويذكر **ابن القلانسي** أن ذلك تم يوم ٢٠ رجب سنة ٤٩٠هـ، ص (١٣٤).

الصليبيين من الفناء في هذه المعركة إلا وصول ريموند كونت تولوز الذي كانت قد وصلته استغاثة بوهيموند فأسرع بجيشه حيث وصل في منتصف النهار والتحم في القتال ، مما قوى عزيمة الصليبيين وأضعف قوة الترك ، واستطاع الصليبيون إقامة جبهة طويلة ، كان في ميسرتها بوهيموند وروبرت النورمندي وستيفن كونت بلوا فيما كان في الوسط ريموند وروبرت فلاندرز وفي ميمنتها جودفروي ، وأخذ الصليبيون في القيام بهجوم شامل[١٣٣] وبلغ عدد الذين سقطوا من قوات الصليبيين قرابة الألفين حتى إن تانكريد كاد يقتل لولا الدور الذي لعبه بوهيموند في إنقاذه[١٣٤]. انقلب ميزان المعركة إلى جانب الصليبيين حيث استطاعوا بالدعم الجديد الذي وصلهم ، أن يحيلوا الانتصار الذي كاد قلج أرسلان أن يحققه إلى هزيمة ساحقة للأتراك إذ سرعان ما انهار جيش قلج أرسلان وأخذ الناجون يلوذون بالفرار إلى الشرق ، حتى إنهم لم يستطيعوا إزالة معسكرهم وخيمة السلطان ، فظل قائما حيث وقع في أيدي الصليبيين بما فيه من ذخائر وثروات ، وجمع الصليبيون ما استطلعوا جمعه من خيل الأتراك لاستعمالها حيث إن خيولهم قد أنهكت وقد قتل الكثير منها[١٣٥]. كما استولوا على قوافل الجمال التي كانت معدة للحمل ، وكانت هي المرة الأولى التي يتعرف فيها الإفرنج على هذا النوع من الحيوانات الذي يستخدم في النقل[١٣٦].

ويحدد وليم الصوري خسائر الإفرنج بأربعة ألاف من الجند وقائدين من كبار القواد ، بينما يحدد خسائر السلاجقة البشرية بثلاثة الآف من الرجال البارزين[١٣٧].

ورغم هزيمة السلاجقة إلا أن الفرنج قد أشادوا بشجاعتهم وقوة شكيمتهم وقدرتهم القتالية وتمنى المؤرخ المجهول لو كان هؤلاء الترك نصارى[١٣٨].

---

(١٣٢) **المؤرخ المجهول** ، مصدر سابق ، ص ٣٩، ٤٠.
(١٣٣) **رانسيمان** ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٦٤.
(١٣٤) **وليم الصوري** ، مصدر سابق ، ص ٢٢٥.
(١٣٥) **فوشيه الشارتري** ، مصدر سابق ، ص ٥٠.
(١٣٦) **وليم الصوري** ، مصدر سابق ، ص ٢٢٥.
(١٣٧) المصدر السابق ، ص ٢٢٧، ٢٢٨.
(١٣٨) **المؤرخ المجهول** ، ص ٤١.

وكان انتصار الصليبيين هذه المرة انتصارا مدويا ، فقد تصدوا لأكبر مجهود استطاع السلطان قلج أرسلان جمعه لمقاومتهم ، ونستطيع أن نقول إن هذه الهزيمة التي تلقاها قلج أرسلان قد قضت على جهوده للتصدي للصليبيين وأخرجته من ساحة المواجهة معهم.

ومن جانبهم فإن الصليبيين أكدوا بذلك الانتصار الذي حققوه في ضورليوم ، انتصارهم في نيقية ، وأصبحوا حقيقة على أرض الواقع في الصراع الجديد في الشرق الأدنى ، وقوة لايمكن الاستهانة بها أو تجاهلها ، ولم يكن وقع الهزيمة عظيمًا على السلاجقة وحدهم بل على المسلمين قاطبة ، ويصف ابن القلانسي أثر هذه الهزيمة بقوله «........ وتواصلت الأخبار بهذه النوبة المستبشعة في حق الإسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق واشترى ملك الروم من السبي خلقا كثيرًا وحملهم إلى القسطنطينية......»(١٣٩).

لقد كان هذا النصر الصليبي في ضورليوم(١٤٠) إيذانا بفتح أبواب الأناضول أمامهم فأصبحت معنوياتهم أكثر مما كانت بعد سقوط نيقية ، فلم يوجد هنا من يشاركهم الغنائم، وتراءى لهم أنه ليس هناك من سيقف في طريقهم ، ولكن طريق القدس مازال طويلاً وعسيرًا.

وبعد أن استراح الصليبيون في ضورليوم يومين بدأوا يستعدون لمواصلة عبورهم آسيا الصغرى ، وتحركوا في ٣ يوليو في جمع متصل بعد أن وجدوا أن تقسيم الجيش لن يكون في مصلحتهم كما حدث في المرة السابقة ، وشقوا طريقهم نحو الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول حيث اجتازوا مضيق Polybotus ثم انحرفوا إلى أنطاكية بيسيديا (أنطاكية الصغرى) والتي أفلتت فيما يبدو من تخريب بقايا جيش قلج أرسلان الذي

---

(١٣٩) **ابن القلانسي** ، مصدر سابق ، ص ١٣٤.

(١٤٠) يرى **رانسيمان** أن المعركة الفاصلة لم تكن في ضورليوم (اسكي شهر الحالية) وإنما في سهل ساري سو SARI-SU حيث السهل والجبال الغربية التي تنطبق عليها أوصاف المعركة ، والتحديد الدقيق لمكان المعركة مازال موضوع نزاع ، وقام **رانسيمان** بزيارة الموقع والوقوف عليه ، ووصل إلى هذا الاستنتاج ، انظر : **رانسيمان** ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٦٤.

عمل خلال انسحابه على تخريب المدن والقرى التي يتوقع أن يمر بها الصليبيون ، حتى لايستفيدوا منها ، وتيسر لهم في أنطاكية الصغرى الحصول على المؤن والطعام والمياه ، ثم اجتازوا بإشارة من مرشديهم البيزنطيين دروب جبل السلطان حتى إذا بلغوا فيلوميلوم اتخذوا من جديد الطريق الرئيسي ، وأخذوا يجتازون الإقليم الصحراوي الموحش الذي يقع بين الجبال والصحراء ، ويشير وليم الصوري إلى أن الرغبة في اختصار الطريق هو الذي دعاهم دون قصد إلى النزول إلى إقليم جاف يكاد يكون بأكمله خاليًا من الماء ، وصاروا بذلك فريسة لخطرين جسيمين : « الظمأ وشدة قيظ يوليو، فأخذ بعضهم في الهرب حتى إن الحوامل من النساء طرحن ما في بطونهن من شدة الظمأ والحر المهلك وكان ذلك حدثا لم يسجل في التاريخ له مثيل »[١٤١] .

وفي منتصف أغسطس ١٠٩٧م بلغ الصليبيون قونيه ، وكان قلج أرسلان قد اتخذها عاصمة له ، وجمع بها فلول جيوشه ، ولكن ما إن سمع الترك بقدوم الصليبيين حتى تركوها وفروا إلى الجبال يحملون مايستطيعون من أمتعتهم المنقولة ، ولم يسعفهم الوقت لتخريب البساتين والغدران التي تقع في نهر ميرام العذب الذي يروي المدينة ، ووجد الصليبيون هنا ضالتهم من المياه والمطعم ، وقد وصفها المؤرخ المجهول بأنها منطقة تفيض بالأطايب من المأكولات وتزخر بشتى أنواع الحياة[١٤٢] .

وعندما أراد الصليبيون التحرك بعد عدة أيام إلى هرقلية نصحهم من بقونيه من الأرمن - وقد أبدوا تعاونًا معهم - أن يحملوا مايستطيعون معهم من المياه ولما يكفي مسيرة يوم واحد وقام السلاجقة في هرقلية بآخر محاولة لصد الصليبيين ولكنها كانت محاولة فاشلة ، حيث صادف الصليبيون في هرقلية جيشا من الترك بقيادة الأمير حسن الدانشمندي والأمير غازي كمشتكين[١٤٣] ، والظاهر أن الأميرين التركيين لم يكونا

---

(١٤١) **وليم الصوري** ، مصدر سابق ، ص ٢٢٩ .

(١٤٢) **المؤرخ المجهول** ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٤٤ .

(١٤٣) **علي بن صالح المحيميد** ، مرجع سابق ، ص ١٧٢ . وأيضا **دائرة المعارف الإسلامية** ، مرجع سابق ، **المجلد التاسع** ، ص١١٤ ، وهرقلية مدينة ببلاد الروم سميت بهرقلة بنت الروم ، وكان هارون الرشيد قد غزاها بنفسه ثم فتحها عنوة بعد حصار وحرب شديدة ورمي بالنار والنفط أهلها.

يريدان القتال وإنما حماية أملاكهم في قبادوقيا ، وكانا يرغبان في الوصول إلى تفاهم مع الصليبين لاجتياز جبال طوروس بعيدا عن أملاكهما ، غير أن الصليبيين بادروا بمهاجمتهم حيث قاد هجومهم بوهيموند ، وسرعان ما آثر الترك الانسحاب صوب الشمال إلى الجبال وتركوا المدن للصليبيين ، فدخل الصليبيون هرقلة ولبثوا فيها أربعة أيام(١٤٤).

وكانت قمة الهزائم السلجوقية أمام الصليبيين حين استطاع هؤلاء الاستيلاء على أنطاكية عاصمة سوريا الشمالية يوم ٢٦ جمادى الأخره سنة ٤٩١هـ/ ٣ يونيه ١٠٩٨م، بعد حصار استمر سبعة أشهر ، ونتيجة لخيانة من أحد حراسها وهو فيروز الأرمني الذي كان يتولى حراسة أحد الأبراج(١٤٥) وتبع ذلك الاستيلاء على الرها وطرسوس وصولا إلى بيت المقدس الذي تم في يوم الجمعة ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ يوليو ١٠٩٩م.

وبذلك تكون الحملة الصليبية الأولى قد تمكنت من تحقيق أهدافها وهو الاستيلاء على بيت المقدس ولابد أن هناك أسبابا مكنت من انكسار السلاجقة الذين كانوا يمثلون

---

(١٤٤) **المؤرخ المجهول** ، مصدر سابق ، ص ٤٤.

(١٤٥) **أحمد كمال حلمي** ، *السلاجقة في التاريخ والحضارة* ، دار البحوث العلمية ، الكويت ١٣٩٥هـ ، ص ١٨٨ ، وأنطاكيه تقع على نهر العاصي (الاورنت) على مسافة ١٢ ميلا من البحر ، أنشأها سنة ٣٠٠ق.م سيلوقوس الأول ملك سوريا ، وأطلق عليها اسم أبيه أنطيوخس ، وفي زمن الرومان أصبحت ثالث مدن العام تعرضت لنهب على أيد الفرس وفتحها المسلمين على يد أبي عبيدة عامر ابن الجراح سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م. أثناء فتح الشام ، وبقيت في يد المسلمين حتى استولى عليها الإمبراطور نقفور فوكاس سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م ثم عادت إلى يد المسلمين حين فتحها سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م. فلما مات انتقلت إلى حوزة السلطان ملكشاه فعين عليها ياغي سيان التركي حاكما لها مدة ١٠ سنوات ، وتتمتع المدينة بجغرافية فريدة فهي على شكل دائرة قطرها متصل بالجبل والأسوار تصعد مع الجبل فتتم دائرة يبلغ محيطها ١٢ ميلا ، ومن الملاحظ أن فتح أنطاكيه على يد السلاجقة ، ثم الاستيلاء عليها على يد الصليبيين لم يتم إلا عن طريق الخيانة من داخلها ، فهي مدينة هائلة التحصين ، وهي مدينة عزيزة على النصارى فقد أقام بها بطرس أول أسقفيه وبها العديد من الكنائس المعمولة من الذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع ، انظر ابن **الاثير**، *الكامل* ، ج٨ ، ص ١٢٦ ، **وأسد رستم**، كنيسة *أنطاكيه*، ج٢ ، ص٢٦٨ ، **ورانسيمان** ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٣٠٣. وأما عن فيروز الأرمني فيذكر **ابن القلانسي** أن أسمه « زراد » ويعرف كذلك بـ« روزبه » وكان يضمر في نفسه كرهًا شديدًا لأمير أنطاكية ياغي سيان ، انظر :**ابن القلانسي** ، مصدر سابق ، ص ١٣٥.

أهم القوى الإسلامية في تلك الفترة ويتولون حماية الخلافة الإسلامية ، ولعل من هذه الأسباب الخلافات التي نشأت بين السلاجقة ذاتهم وتنافس أمرائهم على حكم المدن والولايات منفردين ، وهي عوامل داخلية كانت تهدد كيان الدولة السلجوقية وتسرع بها نحو الفناء[١٤٦] كذلك فإن وقوع أمراء السلاجقة في آسيا الصغرى تحت تأثير سياسة التفريق بينهم التي كان يمارسها الإمبراطور البيزنطي ، وما أحدثته من أثر كبير جعلتهم يدخلون دائرة رهيبة من الاحتراب والتنافس والصراعات ثم إن هناك الخلافات التي أخذت تبرز بين السلاجقة وبين الخلفاء العباسيين الذين يفترض أنهم كانوا يحكمون باسمهم ، مع أن الأحداث كانت تستوجب الالتحام والتعاون.

وعمل الصراع الذي كان دائراً بين السلاجقة والفاطميين ، وكانت بلاد الشام ، هي محوره ومركزه أثره في إضعاف القوتين حتى إن الصليبيين استطاعوا استغلال هذا الصراع وتضليل القوتين الإسلاميتين ومنع توحدهما لمواجهة الصليبيين مما عجل بتقهقر القوتين المتناوئتين أمام الصليبيين[١٤٧] .

ثم إن الضعف الشديد الذي لف الخلافة العباسية في تلك الفترة والذي تزايد بسبب عوامل عدة في طليعتها المنافسة التي كانت تلقاها من الخلافة الفاطمية في القاهرة ، سواء على المستوى المذهبي أو السياسي وحتى العسكري مما جعل الأمة الإسلامية خالية من قيادة حقيقية تستطيع أن توحد الأمة أو مجهودها الحربي في التصدي للقوات الصليبية التي كان ضعف المسلمين أهم من قوتها في تحقيق انتصاراتها على أرض الواقع[١٤٨] .

---

(١٤٦) **أحمد كمال حلمي** ، مرجع سابق ، ص ١٨٩ .

(١٤٧) **ابن الأثير** ، *الكامل* ، ج٨ ، ص ١٨٨ .

(١٤٨) تذكر كتب التاريخ أن وفودا قدمت من الشام إلى بغداد بعد أن أسقطت بيت المقدس تستنجد بالمسؤولين وتستغيث بأولى الأمر ، وتصور ماحل ببيت المقدس وتطلب المدد والنصرة ، ولكنهم لم يجدوا آذانا صاغية ، ولم يجدوا سوى الدموع وعادوا بخفي حنين . عن أخبار الوفود انظر : **ابن الأثير** ، ج٨ ، ص ٢٥٠ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية

ابن الأثير (أبى الحسن على بن عبد الواحد الشيباني) (١٣٩٨/ ١٩٧٨م) *الكامل في التاريخ*، الجزء الثامن ، بيروت ، دار الفكر.

الأصفهاني (محمد بن علي بن حامد) (١٤٠٠هـ) *تاريخ دولة آل سلجوق*، اختصار الفتح بن على بن محمد البنداري ، لجنة إحياء التراث العربي ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة.

البيهقي (أبو الفضل) (١٩٨٢م) *تاريخ البيهقي*، ترجمة عن الفارسية يحيى الخشاب وصادق نشأت ، بيروت ، دار النهضة العربية.

التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيه بالموصل (١٩٦٣م) تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة .

ابن الجوزي (أبى الفرج عبد الرحمن بن على) (١٣٥٩هـ) *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، الجزء الثامن ، حيدر أباد ، مطبعة دار المعارف العثمانية .

الحريري (أحمد بن علي) (١٩٨١م) *الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين*، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، مكتبة دار التضامن.

الحسيني (صدر الدين بن على) (١٤٠٤هـ) *كتاب أخبار الدولة السلجوقية*، لجنة إحياء التراث العربي، بيروت ، دار الآفاق الجديدة.

السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) (١٩٦٨م) *حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار أحياء الكتب العربية.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) (١٩٦٩م) *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، د.ن.

ابن العبري (أبى الفرج جمال الدين) (١٩٨٦م) *تاريخ الزمان*، ترجمة إسحاق أرمله ، بيروت ، دار المشرق.

العظيمي ، تاريخ (١٩٨٤م) *مخطوط في مكتبة بايزيد في استنابول* رقم ٣٩٨ (فصل من كتاب الحملتان الأولى والثانية حسب روايات وشهود عيان كتبت أصلاً بالإغريقية والسريانية والعربية واللاتينية - للدكتور سيل زكار، دمشق ، دار حسان ، الصفحات ٦٦١-٧٣٨.

ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة) (١٩٠٨م) *ذيل تاريخ دمشق*، بيروت، مطبعة الأباء اليسوعيين.

ثانيًا : المصادر المعربة

جيل ، ريموندا (١٩٩٠م) *تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس*، ترجمة حسين محمد عطيه، الإسكندرية ، دار المعرفة الجماعية .

الشارتري ، فوشيه (١٩٩٠م) *تاريخ الحملة إلى القدس*، ترجمة زياد العسلي ، عمان ، دار الشروق.

الصوري ، وليم (١٩٩١م) *الحروب الصليبية* ، ترجمة حسن حبشي ، الجزء الأول ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتب ، رقم (٤٥) من سلسلة تاريخ المصريين .

المجهول ، المؤرخ (١٩٥٨م) *أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس* ، ترجمة وتقديم حسن حبشي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الفكر العربي .

ثالثًا : مراجع عربية ومعربة

إسكندر ، فايز نجيب (١٩٨٤م) *البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد في مصنف نقفور برينيوس* ، سلسلة بحوث ودراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية رقم (١) ، الإسكندرية ، دار نشر الثقافة .

ـــــ (١٩٨٧م) *استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية « آني »* ، دراسات في تاريخ أرمينية رقم (٣)، الإسكندرية ، دار الفكر الجامعي .

ـــــ (١٩٨٨م) *غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية* ، دراسات في تاريخ وحضارة أرمينية رقم (٦) ، الإسكندرية ، دار الفكر الجامعي .

ـــــ (١٩٨٨م) موقعة ملاذكرد *وصداها في القسطنطينية* ، سلسلة بحوث في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية رقم (٤) ، الإسكندرية ، دار الفكر الجامعي.

إسماعيل ، ليلى عبد الجواد (١٤١٠م) *تاريخ الروس من خلال المصادر العربية* ، القاهرة ، دار الثقافة العربية .

باركر ، أرنست (١٩٦٧م) *الحروب الصليبية* ، ترجمة الباز العريني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية.

الجميلي ، رشيد عبد الله (١٩٨٤م) دراسات في تاريخ الخلافة العباسية ، الرباط ، مكتبة المعارف .

الجنزوري ، عليه عبد السميع (١٩٨٨م) *الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى* ، القاهرة ، دار التضامن .

حبيبة ، علي (١٩٩٠م) *المسلمون والصليبيون* ، القاهرة ، مكتبة الشباب.

حسن ، حسن إبراهيم (١٩٦٧م) *تاريخ الإسلام السياسي* ، الجزء الرابع ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

حسنين ، عبد المنعم محمد (١٩٧٥م) *دولة السلاجقة* ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية.

رانسيمان ، ستيفن (١٩٦٧م) *تاريخ الحروب الصليبية* ، ترجمة الباز العريني ، الجزء الأول ، بيروت ، دار الثقافة.

ربيع ، حسنين محمد (١٩٩٠م) *دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية* ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

رستم ، أسد (١٩٨٨م) *الروم في سياستهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب* ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتبة البولسية .

ـــــ (١٩٨٨م) كنيسة مدينة *أنطاكيه العظمى* ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتبة البولسية.

زيتون ، عادل (١٤٠٠هـ) *العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني* ، دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر .

الزهراني ، محمد مسفر (١٤٠٠هـ) *نظام الوزارة في الدولة العباسية العهدان (البويهى والسلجوقي)* ، بيروت ، مؤسسة الرسالة .

ـــــ (١٤٠٤هـ) *نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية* ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة المدني.

سليمان ، أحمد عبد الكريم (١٩٨٤م) *المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجري ، والتاسع والثاني عشر الميلادي* ، الجزء الأول ، القاهرة ، دار السعادة.

الشناوي ، أحمد ، و خورشيد ، إبراهيم زكي ، و يونس ، عبد الحميد (١٩٣٣م) *دائرة المعارف الإسلامية* ، القاهرة ، دار الفكر.

عاشور ، سعيد عبد الفتاح (١٩٧١م) *الحركة الصليبية* ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية.

عبيد ، إسحاق تاوضروس (١٩٧٠م) *روما وبيزنطة (من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية)*، القاهرة ، دار المعارف .

العريني، الباز (١٩٨٢م) *الدولة البيزنطية* ، دار النهضة العربية ، بيروت .

عمران ، محمود سعيد (١٩٩٦م) *معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى* ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية .

غربال ، محمد شفيق (١٩٦٥م) *الموسوعة العربية الميسرة* ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة .

الفقي ، عصام عبد الرؤوف (د.ت.) *بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي* ، القاهرة ، دار الفكر.

فيشر ، هربرت (١٩٦٩م) *تاريخ أوروبا - العصور الوسطى* ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والباز العريني ، ط ٥ ، القاهرة ، دار المعارف.

المحيميد ، علي بن صالح (١٩٩٤م) *الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول* ، مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية .

هستر ، س.و.ر.ن. (١٩٨٨م) *أوروبا في العصور الوسطى* ، ترجمة محمد فتحي الشاعر ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية .

هسى ، ج. م. (١٩٨٤م) *العالم البيزنطي* ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار المعارف.

يوسف ، جوزيف نسيم (١٩٨٤م) *تاريخ الدولة البيزنطية* ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة.

ـــــ (١٩٨٩م) *دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى* ، الطبعة الثالثة ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية.

ـــــ (١٩٨٩م) *العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى* ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية .

مصادر ومراجع أجنبية

Comunnen, Anna (1969) *The Alexiad,* Trans by E.A. Sewter, Second Edition, Penguin Book, London.

Ostrogorsky, G. (1968) *History of Byzantine State,* Trans by Joan Hassey, Second Edition, London : T.J. Press.

Vasiliev, A.A. (1970) *A History of Byzantine Empire,* The University of Wisconsin Press, Wisconsin.

The Seljuki Expansion in Asia Minor in the 5^{th} Century Hijrah / 11^{th} Century A.D.

Omar Y. Muhammad

Assistant Professor, History Department, Faculty of Arts and Humanities, King Abdulaziz University, Jaddah, SaudiArabia

Abstract. The Seljuks were one of the fighting powers that appeared in the arena of events in the Islamic State and its History. This happened as a result of the weakness and deterioration that prevailed the Abbasid Caliphate during the domination of the Buwaihids. The Seljuks were able to aquire power and to dominate the Abbasid Caliphate, the thing which made them contribute to the Islamic civilization and the spread of Islam and the Islamic conquests in the North as well as in the East. However, the expansion of Islam during the Seljuki period concentrated on the East until it reached Central Asia, and in the North where they possessed Asia Minor, the heart of the Byzantine Empire. During their wars against the the Byzantine Empire, the Seljuks were able to snatch those lands from the Empire. Thus the Seljuki expansion in Asia Minor and its wars against the Empire consist a link of a chain in the Islamic History as well as in the Byzantine and Medieval History in general. With their expansion in Asia Minor the Seljuks opened a new page of the Islamic Conquests. They also added a new look to the struggle between the Islamic State and the Byzantine Empire. In fact, they added a new chapter to this struggle that was continuing for seven centuries, until it ended with the destruction of this Empire at the hands of Muhammad al-Fatih, the Ottoman Conqueror, and the fall of Constantinople in the year 857 A.H. / 1453 A.D. This paper tackles the Seljuki expansion in Asia Minor and the outcome of those events.